

المواجهة



تحرير المرأة

قاسم أمين

الننوير

المواجعة

قاسم أمين

تحرير المرأة

الننوير



تصدير

كانت اعادتي قراءة هذا الكتاب ، الذى صدر منذ سبعين سنة ،
مفاجأة مثيرة بالنسبة لى . .

فقد سبق أن قرأت هذا الكتاب منذ سنوات بعيدة ، كما قرأه
غيرى فى أجيال متعاقبة ، ثم مضى الى احدى الزوايا البعيدة
للذاكرة ، حتى لم يبق منه واضحا الا القضية العامة التى يتعمش
عنها .

كذلك بعض المعارك حين يتم كسبها ، يصبح ما ثارت من أجله
بديهة من بديهيات الحياة - تبدو على البعد سهلة بسيطة ، وأحيانا
مسلية مثيرة للابتسام ألا يثير الابتسام . الآن - مثلا - أن نسترجع
معركة دارت منذ سبعين سنة حول أشياء مثل : حقوق المرأة فى
التعليم ، وحقها فى العمل ، وحقها فى أن تسير فى الشوارع
مكشوفة الوجه ؟

ولكن أكثر بديهيات الحياة لم تصبح بديهيات بهذه السهولة .
وأصعب ما يمكن تغييره هو المعتقدات والعادات والتقاليد . ان
اختراع الطائرة ، مثلا ، وما يترتب على ذلك من نتائج الحياة لا يثير
لدى الانسان مشكلة كبيرة . انه يتقبلها ويستعملها ويستادها
بسهولة . ولكن تغيير عادة اجتماعية ، كوضع الحجاب على وجه
المرأة ، أو تغيير علاقة المرأة بالرجل ، أمر لا يستاده المجتمع
بسهولة . فهنا يواجه الانسان صراعا مع نفسه ، مع تكوينه

الاجتماعى والنفسى والثقافى . وهو اقصى واصعب من صراعه مع الطبيعة الذى يتمثل فى الاكتشافات العلمية والاختراعات مهما كان اثرها فى تغيير حياته .

والحديث عن « تحرير المرأة » فى البيئة المصرية - والعربية - بوجه عام ، منذ سبعين سنة ... لم يكن فكاهة ولا تسلية ، وانما كان معاناة صعبة قاسية . يكفى ان نتذكر اننا اليوم ، وبعد ان كسبت قضية تحرير المرأة نظريا وفكريا نستطيع ان نرى الحجاب - وهو ليس جوهر قضية تحرير المرأة . ولكنه أبسط مظاهرها - ما زال سائلا فى ما لا يقل عن نصف المدن والقرى العربية . وان كان الحديث عن تحرير المرأة قد أصبح عاديا ومألوفا ...

على انه هنا تكمن المفجأة المثيرة التى ظفرت بها عندما وجعت الى هذا الكتاب أقرؤه من جديد : ان الحديث الذى يقدمه لنا ليس عاديا ولا مألوفا على الاطلاق . وهو بالتأكيد ليس كتابا « قديما » فى مضمونه وصياغته ومنطقه : ان نوع تناوله للموضوع ، وأفق ، وعمقه ، والوانه النابضة الحياة - تجعل المرء يشعر وكأن كاتبه قد نفى يده من كتابته بالامس فقط ...

وبهذا المعنى . فانه من الظلم أن يقال ان معركة قاسم أمين كانت الحجاب . أو المرأة فقط . واذا كان الحجاب هو الساحة المباشرة التى دار فيها معظم القتال ، فان ما تصدى له قاسم أمين كاف فى مداه . وفى مقراه . أوسع كثيرا من ذلك ...

ان مكان قاسم أمين الحقيقى هو بين ذلك الرعيل من المناضلين المفكرين الذين حفل بهم ما يمكن أن نسميه « عصر التنوير » الأول فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن . مكانه الحقيقى هو بين جمال الدين الأفغانى وعبد الرحمن الكواكبي ومحمد عبده وأديب اسحق وفرح أنطون وعبد الله النديم وعبد السلام المويلحى وسعد

زغلول . ثم طه حسين وعلى عبد الرازق وساطح الحصرى اذا شئنا
ان نتوغل قليلا فى القرن العشرين .

هذا الرعيل ، شب ونشأ وخاض فترة من أخطر الفترات فى
تشكيل الواقع المصرى فى الدرجة الأولى ، والعربى بوجه عام .

لقد أقام محمد على أسس « الدولة » المصرية الحديثة ، وهز
قوائم الامبراطورية التركية التى كانت تغطى العالم العربى كله تحت
عباءتها الواسعة ، وحقق كل ما يلزمه لانجاز هذا الهدف : سواء فى
مجال الزراعة أو الصناعة أو الاقتصاد أو التسليح أو التعليم .

ولكنه لم يغير - أو لم يتصد لتغيير - شئ من حياة المجتمع
وافتكاره ومعتقداته بوجه عام ، ثم انكسرت محاولته وانحسرت أمام
« تحالف على » أراد انقاذ الامبراطورية التركية الشائخة واجهاض
هذه الدولة البازغة فى الأفق العربى .

وقد حبت يصد ذلك الثورة العراقية ، محاولة شعبية هذه
المرّة ، لتحرير المجتمع المصرى ، ثم انكسرت أمام قوة دولية أخرى -
أكبر قوة دولية فى ذلك الوقت انجلترا ، أجهضت مرّة أخرى
المحاولة الجديدة لاقامة كيان مستقل يتحمل تبعات نفسه وينفتح
على التطور ..

تلك كانت روائح العصر ..

الامبراطورية العثمانية - الدينية - فى افول ، وقد خرجت
من مصر ، ولكن بقى ظلها ماثلا فى أذهان الكثيرين سواء تمسكا
بفكرة الدولة الدينية أو مقاومة للانجليز .. وامبراطوريات أوربية
صناعية صاعدة ، تشق طريقها لثرت الامبراطوريات القديمة ،
ولتبدأ عصر الاستعمار بمعناه الجديد آنذاك .. وحركة قومية عربية
تغلى ، وحركة وطنية مصرية تشب ، وهجرة فكرية عربية الى مصر

المتمتعة بقدر نسبي من التحرر .. ورياح عصر جديد أوردني يهز
النوافذ والأبواب القديمة بأفكار وثياب وعادات وأساليب جديدة ،
وتشبت عنيف بالماضى حتى لا تضيع الهوية والشخصية والكيان .
مع تحرق حاد الى الاتصال بالجديد واكتسابه والظفر بمقوماته ..

عصفت هذه التيارات كلها بمصر ، وتكاثرت الأمثلة الخطيرة
المطروحة على العقل المصرى ، والعربى بوجه عام ...

ما الذى حدث عبر القرون ؟

ما الذى جعلنا نتخلف وغيرونا ينطلق ؟

ما علاقتنا بالماضى ؟ وماذا نسلك من طرق المستقبل ؟

ما جوهر الدين ؟ .. وما الذى علق به فى عصور الانحطاط ؟

ما الحلال والحرام ؟

من الشعب ؟ ... وما السلطة ؟ ومن الذى يحكمه ؟

انصلح السلطة لكى ينصلح الناس ؟ أو نصلح الناس لكى
تنصلح السلطة ؟

ما هويتنا ؟ .. وطنية مصرية ؟ .. قومية عربية ؟ .. أمة
إسلامية ؟ وهل هذه الانتماءات متعارضة أو متكاملة ؟

فى الذاكرة تجارب قرينة متعارضة متصارعة .. المماليك ،
الأتراك ، نابليون ، محمد على ، عرابى ، الانجليز .. فما الحل ؟
وما العمل ؟

فى هذه الفترة الشديدة الخطر ، عاش قاسم أمين ، وعاش
ذلك الرعيل الذى أشرت اليه ..

وقد ذهب كل منهم ، فى ظروف شتى ، يضرب فى سبيل ...

منهم من نظر الى الخارج ومضى يحارب الاستعمار بالعمل
السياسى المباشر لأنه رأس الماء ، ومنهم من نظر الى الداخل ورأى
ان التجديد الدينى هو نقطة البدء فى بصث الأمة ، ومنهم من خاض
معركة التعليم ، ومنهم من عمد الى أسلحة التعليم المستحدثة كالمرح
والصحافة ، ومنهم ٠٠ ومنهم ٠٠٠

واختار قاسم أمين قضية بالغة الخطورة هى قضية المرأة .
ولكن كل سطر كتبه فى هذه القضية نابض بالدليل على أن كل
المعارك الأخرى والقضايا المطروحة كانت ملء قلبه وعقله .

★★★

ولد قاسم أمين فى الاسكندرية ، فى ديسمبر سنة ١٨٦٣ ،
أو هذا على الأقل هو التاريخ الذى تشير اليه المصادر . اذ يظل
الباحث يتساءل عن المسافة بين سنه الصغيرة والشهادات التى
حصل عليها ، والمناصب التى تولاها ، برغم أنه كان من سلالات
الأتراك النوات الذين كانت تنفتح أمامهم الطرق الى الترقى فى
سهولة ويسر .

وكان أبوه محمد بك أمين - من أسرة تركية ، عندما كانت
الأسرة التركية خصوصا تلك المتيسرة نوعا هى أرستقراطية العالم
العربى كله . وهكذا كان محمد بك أمين كسائر الموظفين الأتراك
الكبار ينتقلون بين المناصب فى مختلف أطراف العالم العربى الداخل
فى دائرة الامبراطورية . فهو - محمد بك أمين - لم يولد فى
تركيا ، ولكنه ولد فى « السليمانية » عاصمة المنطقة الكردية فى
شمالى العراق حاليا . حيث كان ابن عمه يعمل واليا على المنطقة .
وقد عاد الى استانبول حيث درس القانون ثم عاد الى السليمانية
ليكون بدوره واليا .

وفى هذه الأثناء جاء محمد بك أمين فى رحلة الى مصر . وجاب

الدلتا والقاهرة. والصعيد . وفي الصعيد تعرف الى أسرة مصرية أعجب بها وتزوج إحدى بناتها ، وسافر بها الى مقر عمله . وكانت له هناك زوجة تركية لم تنجب . فلما حملت زوجته المصرية بعد ذلك لأول مرة فرح فرحا شديدا ، وجاء بها الى مصر لتضع مولودها بين أهلها . . ولكن آلام الوضع فاجت الزوجة في الاسكندرية . بعد وصولها على السفينة بقليل ، فوضعت في الاسكندرية أول أبنائهما « قاسما » . وعاد محمد بك أمين الى السليمانية بزوجه المصرية وطفلهما قاسم ، وهناك ولدت ابنة الثاني ابراهيم . . .

وكان محمد بك أمين في اجازة من عمله في استانبول عندما نشبت ثورة في كردستان ، فلم يعد اليها . وسهلت له علاقاته العائلية أن تمنحه السلطات - كما كان يحدث كثيرا - اقطاعية واسعة في شمالى الدلتا ، محافظة كفر الشيخ حاليا ، فجاء الى مصر لكي يستقر فيها ، ويستثمر اقطاعيته ، وكان قاسم وقتها في الثامنة من العمر . . .

وعاشت الأسرة زمنا في الاسكندرية ، أقرب مدينة كبيرة الى الاملاك الجديدة ، ودخل قاسم مدرسة رأس التين ، ثم انتقلت الأسرة الى حى الحلمية بالقاهرة وانتقل هو الى المدرسة التجهيزية (الخديوية الثانوية حاليا) ، ثم دخل مدرسة الحقوق ، وحصل على الليسانس سنة ١٨٨١ وكان أول الدفعة ، وعمره طبقا للتاريخ الذى سبق ثمانية عشر عاما فقط .

وقد ارسله أبوه ليتمرن في مكتب المحامى « مصطفى فهمى » الذى أصبح بعد ذلك رئيس وزراء طوال ثمانية عشر عاما متصلة تحت حكم الانجليز ، والذى صاهره بعد ذلك سعد زغلول حين تزوج ابنته صفية . ثم لم يلبث قاسم أمين أن سافر الى فرنسا في بعثة ليدرس القانون . . .

حضر قاسم أمين في تلك الفترة مقدمات الثورة العربية
وذهب الى قهوة متاتيا عند سور الأزبكية حيث عرف جمال الدين
الأفغاني وتحلق مع شباب آخرين من حوله كسعد زغلول . . ورجال
أكبر منه قليلا منهم محمد عبده وعبد الله النديم وأديب اسحق . . .

كتب عن هذه الفترة بعد ذلك يقول : « في عهد الاستبداد ،
في الوقت الذي كانت فيه كلمة الخديو تكفي لإعدام من يغضب
عليه ، في تلك الأيام السود ، التي كانت حياة الانسان وحرية
وأمواله مهددة بالضيق ، ولم يكن لأحد مهما كان مقامه ضمان
تحميه ، في ذلك العهد ظهر أفراد وجدوا من شعورهم ما دفعهم الى
صد ارادة الحاكم والتصريح بأرائهم » . .

لا شك أن قاسم أمين قد امتزج بالعاطفة الوطنية المتحررة
التي كانت من مقدمات الثورة العربية ، وبخاصة أنه عرف أقطابها
عن كتب ، ولا شك أنه قد سافر الى فرنسا مبعوثا مفعما بأمال
ببلاده .

وفي باريس تابع تطور الأحداث المحزون : هجوم الانجليز على
مصر ، وكسر الثورة العربية ، والمحاكمات ، والفرار والاختفاء .
لقد أخفقت محاولة أخرى . . .

وجاء الأفغاني ومحمد عبده الى باريس منفين . وعندما
أصدرا جريدة « العروة الوثقى » ساهم فيها معهما ، وأخذ يساعد
محمد عبده على تعلم اللغة الفرنسية . ثم لاحق الاضطهاد الدولي
أنفاس الحركة الوطنية التي بدأت يتردد على صفحات « العروة
الوثقى » في باريس حتى أخذ هذه الأنفاس ، وأغلقت « العروة
الوثقى » بعد صدورها بأشهر قليلة . .

نستطيع أن نتصور قاسم أمين ، معذبا في بلاد الغربية بهذه الشجون كلها . . هو الذى ترك بلاده تنبض بالآمال ، وتموج بحركة وطنية وتحريرية مباشرة . . وها هو ذا يرى على البعد أنفاس هذه الحركة قد أخذت ودولة كبرى قادرة قد جثمت على صدر هذه الأحلام التى اختنقت . . .

وها هو ذا يعقد المقارنات أو يبدأ فى تأمل الأشياء من زوايا جديدة . لو قورن بين مصر ومدن الدول الأخرى مثل لندن وباريس لظهرت فى حالة محزنة ، كما لو وضعت سائلة ذات أظفار قنرة بالية فى جانب عروس متحلية بأفخر الملابس وأغل الحلى وأبهاما . وفى الحقيقة أن مصر بلاد فقيرة جدا نصف أهلها - وهم الفلاحون - يعيشون بالشئ ، الثقافة الذى يقى النجى من الموت جوعا .

وهو بحكم ثقافته الشرقية ، واختلاطه بمحمد عبده المحارب فى ساحة التجديد الدينى ، يبدأ يدرس ما فى بلاده من عادات وتقاليد ، وأبها من الدين الصحيح وأبها دخيل ؟ . . فهو يكتب فيما بعد فى كتابه « تحرير المرأة » خاطرا ألح عليه كثيرا : « لم يعتقد المسلم أن عوائده لا تتغير ولا تتبدل ، وأنه يلزمه أن يحافظ عليها الى الأبد ؟ . . مع أنه هو وعوائده جزء من الكون الواقع تحت حكم التغير والتبديل فى كل آن ؟ أيقدر المسلم على مخالفة سنة الله فى خلقه ، اذ جعل التغير شرط الحياة والتقدم ، والوقوف والجمود مقترنين بالموت والتأخر ؟ » .

واذا كان لكل نفس طبيعتها وميولها ، فلا شك أن قاسم أمين لم يكن صاحب تلك الطبيعة التى تجعله محاربا كسعد زغلول ، أعز أصدقائه مثلا ، ولكنه كان مرهف الحس للفنون والجماليات والقضايا الاجتماعية ، فيعلن أنه « من أكبر أسباب انحطاط الأمة المصرية تأخرها فى الفنون الجميلة . التمثيل والتصوير والموسيقى ، هذه الفنون ترمى جميعها الى غاية واحدة هى تربية النفس على حب الجمال والكمال ، وأعمالها هو نقص فى تهذيب الحواس والشعور » .

وبهذا التكوين وهذه الميول ، يتعرض لتجربة يتعرض لها كثيرون من الشبان الشرقيين الذين يسافرون الى أوربا ، تجربة التعرف الى المرأة الأوروبية . فبعض المراجع تحدثنا عن فتاة فرنسية اسمها « سلاقا » أغلب الظن أنه كانت بينه وبينها قصة هوى مشبوب .

على أنه فيما يبدو لم يعرف سلاقا خلال علاقة لاهية ، كما يحدث لآخرين ، انما كانت بينهما علاقة ملكت عليه حواسه ، تفهم هذا من سطور في كتاباته عن الحب ، سطور فيها احاطة بكل ما يعرض للمرأة في حالات الوجد العنيف ... فالحب ، كما يصفه : « ... مرض يقاسى منه العاشق عذابا يظهر باحتقان في مخه وخفقات في قلبه واضطراب في أعصابه واختلال في نظام حياته ، ويظهر على الأخص في الأكل والنوم والشغل ، ويجعله غير صالح بشئ سوى أن يقضى أوقاته شاخصا الى صورة محبوبته مستغرقا في عبادتها ، ذاكرا أوصافها وحركاتها واشارتها وكلماتها .. نظرة من عيون محبوبته تملأ قلبه فرحا ، وتجعله يتخيل أنه يمشى في طريق مفروش بالورد ، أو أنه راكب سحابة أو طائر في المرتفعات العالية .. في هذه اللحظة يكون أسعد من أكبر ملوك الأرض ، فاذا انقضت ، عاد الى ما كان فيه من عذاب وآلام » .

.. تدقيق لا يترك شكاً في سبق معاناة صاحبه ، وأسلوب يذكرنا بأسلوب الكاتب الاندلسي القديم « ابن حزم » في كتاب « طوق الحمامة » ..

وسواء أكانت هناك سلاقا أم لم تكن فلا شك أن قاسم أمين قد استوقف نظره بوجه خاص وضع المرأة في المجتمع المتقدم ، وأكثر من ذلك : علاقة المرأة بالرجل ، والمصانئ العميقة للحب

وللزوجية .. ففي هذا المجال نجد يكثف صفحات من أجمل صفحات كتابه هذا عن تحرير المرأة ..

« اللذة الجسمانية المتحلة في النوع مهما تخالفت في الأفراد فهي دائما واحدة . فان أفراد اللذة في النوع تتشابه الى حد تكاد لا تتميز الا باختلاف الزمان أو المكان مثلا ، فما يحصل منها أولا هو ما يحصل ثانيا وثالثا ورابعا .. وهكذا .. »

« ومن البعض أن تكرر لذة بعينها مهما كانت سواء كانت لذة. نظر أو لذة سمع أو لذة ذوق أو لذة لمس يفضي في الغالب الى فقد الرغبة فيها ، فيأتي زمن لا تتنبه الأعصاب لها لكثرة تعودها اياها . والآخر بخلاف ذلك بالنسبة للذة المعنوية . هذه اللذة في طبيعتها يمكن تجديدها على كل آن : تعمل في مسامرة صديقين تجد أنها كنز سرور لا يفنى متى تلاقيه يفرغ كل منهما روحه في روح الآخر فيسرى عقلهما من موضوع لموضوع ... كل عمل أو فكر أو حادث أو اختراع يكسب عقلهما غذاء جديدا ، ويزيد أنفسهما لذة جديدة . كل مظهر من مظاهر حياة أحيى العقلية والوجدانية وكل ما تحلت به نفسه من علم وأدب وذوق وعاطفة تنعكس منه على نفس الآخر لذة جديدة ، ويزيد في رابطة الألفة بينهما عقدة جديدة . »

« ومن هنا يعلم مقدار سلطان الحب الحقيقي على الانسان وكيف أن العارف يعتبر العنود على ذلك الحب الشريف من اكبر السعادات في هذه الدنيا . فان كان المال زينة الحياة فالحب هو الحياة بعينها .. »

« فهذا الحب لا يمكن أن يوجد بين رجل وامرأة اذا لم يوجد بينهما تناسب في التربية والتعليم . ويجب ألا يفهم أن الرجل المتعلم اذا لم يحب زوجته فهي يسكنها أن تحبه . فان توهم ذلك يعد من الخطأ الجسيم ، لأن الحب الحقيقي الذي عرفت عنصريه

المادى والمعنوى لا يبقى الا بالاحترام . والاحترام يتوقف على المعرفة بمقدار من تحترمه . والمرأة الجاهلة لا تعرف مقدار زوجها .

• سل جمهور المتزوجين هل هم محبوبون من نسايم ؟ يجيبون : نعم . لكن الحقيقة غير ما يظنون . انى بحثت كثيرا فى عائلات مما يقال انها فى اتفاق تام ، فما وجدت الى الآن زوجا يحب امراته ولا امرأة تحب زوجها . أما هذا الاتفاق الظاهرى الذى يشاهد فى كثير من العائلات فمعناه أنه لا يوجد شقاق بين الزوجين . . اما لأن الزوج تعب وترك ، واما لأن المرأة تركت زوجها يتصرف فيها كما يتصرف المالك فى ملكه ، واما لأنهما كليهما جاهلان لا يتروكان قيمة الحياة . وهذا الخطأ الأخير هو حال أغلب الأزواج المصريين .

• ولا ارى ما يقرب من السعادة الا فى هذا النوع الأخير . وان كان سعادة سلبية لا قيمة لها . أما النوعين الأولين فقد اشترى الوفاق بضمن غال هو فناء أحد الزوجين فى سبيل ابقاء الآخر . وغاية ما يمكن أن أسلم به هو أنه قد يشاهد فى عدد قليل من الأزواج شىء يقرب من المودة يظهر فى بعض الأحيان ثم يختفى . وهو استثناء يؤيد القاعدة وهى عدم الحب . عدم الحب من طرف الزوج لأن امراته متاخرة عنه فى العقل والتربية تأخرا فاحشا بحيث لا يكاد توجد مسألة لا يمكن أن يتحدثا فيها لحظة بسرور متبادل . ولا يكاد يوجد امر يتفقان فى الحكم عليه برأى واحد . ولأنها بعيدة عن العواطف والمعانى والأشغال التى يميل اليها ومغمورة فى شئون ليس لها فى ميله نصيب . حتى انها فى الأمور التى هى من عملها ، وترى انها خلقت لأجلها ، لا يرى منها زوجها ما يرون نظره . فأكثر النساء لم يتعودن تسريح شعورهن كل يوم . ولا الاستحمام أكثر من مرة فى الأسبوع . ولا يعرفن استعمال السواك . ولا يعتنين بما يلى البطن من ملابس مع أن

نظافتها لها أعظم تأثير فى استمالة الرجل ، ولا يعرفن كيف تتولد الرغبة عند الزوج ، وكيف يحافظ عليها وكيف يمكن تنميتها . ذلك لأن المرأة الجاهلة تجهل حركات النفس الباطنة ، وتغيب عنها معرفة أسباب الميل والنفور ، فإذا أرادت أن تستميل الرجل جاءت فى الغالب بعكس ذلك .

« وأما عدم الحب من طرف المرأة فلأنها لا تتفوق معنى الحب . ولو أردنا أن نحلل احساسها بالنسبة لزوجها نجد أنه يتركب من أمرين : ميل اليه من حيث هو رجل أبيع لها أن تقضى معه شهواتها، وشعور بأن هذا الرجل نافع للقيام بحاجات معيشتها . أما ذلك الامتزاج بين روحين اختارت كل منهما الأخرى امتزاجا يؤلف منهما موجودا واحدا .. فهي بعيدة عنه بعد السماء عن الأرض .. »

وإذا كنت قد أسهبت فى نقل هذه الصفحات بالذات من كتاب « تحرير المرأة » فالسبب هو أنني أعلق عليها أهمية خاصة فى النظر الى قاسم أمين وإلى كتابه ...

ذلك أنني أعتقد أن القيمة الكبرى للكتاب ليست فيما « طالب به » فى النهاية . فما الذى طالب به ، بعد كل شيء ؟ ..

تعليم المرأة حتى التعليم الابتدائي ؟ أن تسير المرأة فى الشارع مسافرة الوجه والكفين فقط ؟ تعديل قوانين الزواج والطلاق تعديلات لم تدخل بعد) ؟ وبرغم خطورة هذه « المطالب » فى ذلك الوقت ، أعتقد أنه لو كان الأمر هو مجرد المطالبة بها ، لما ثارت عليه هذه الضجة ، ولما تعرض المؤلف لما تعرض له من حملات ومن صنوف التشهير ..

إن القيمة الكبرى للكتاب فيما يقدمه - تحليل جرى ونظرة نفاذة فى صميم وضع المرأة ، وعلاقات المرأة بالرجل ، ومعنى الزواج ، والأمومة ، والأبوة .

هذه العلاقات التي ركزت واستقرت مئات السنين على شكل معين ، لم يأت قاسم أمين ويتحدث عنها « من الخارج » مطالبا فقط بأن تتعلم المرأة القراءة والكتابة وتكشف عن وجهها وكفيها .. ولكنه غاص في أعماقها غوصا شديدا . وهز قناعات ومسلمات لدى الرجال والنساء على السواء حول قضايا بالغة الحساسية ... انه يكتب كلاما « يجرح » به شعور كل رجل وامرأة ! ..

يقول لكل رجل وامرأة : ليس ما بينكما هو الحب . ما يعيشون فيه هو الزواج بمعناه الحقيقي . ليس صحيحا أنك تحب امرأتك ، أو أنك تحبين زوجك !

هذه الصفحات التي اخترتها . ولها نظائر كثيرة - نجد قاسم أمين فيها يتحدث بصراحة ، وجراحة ولباقة مما عن حياة المرأة والرجل .. عذليا ونفسيا وجنسيا وشعوريا واقتصاديا ، لا يعنى من تحليله الجارح حتى ملابس المرأة الداخلية !

ربما كان ما حظي بالجدل حين شنت عليه الحملات هو تعليم المرأة وسفورها وطلاقها وزواجها لأن هذه في حد ذاتها لم تكن بالأمور البسيطة .. يكفي أن نذكر أن المرأة لم تكشف وجهها الا بعد ثورة ١٩١٩ ، في سنة ١٩٢٢ ، وكان يحدث أحيانا أن يقلب الناس في الشوارع المرأة السافرة الوجه ، في بعد وبع قرن من صدور الكتاب ، وأن أول مدرسة ثانوية للبنات وعلى نظام مدارس البنين ، للمواد الدراسية العادية ، لا النسائية فقط ، لم تنشأ الا سنة ١٩٢٥ ، وأن تقييد حق الرجل في الطلاق وفي الا يقع الطلاق الا أمام القاضي ، لم يقر بعد برغم مرور سبعين سنة .. بل انه يعنى أيضا أن المرأة « لن تنال ما تستحق من الاعترافات والكرامة الا اذا منحت حق الطلاق » .

ربما كان هذا كله عاما وخطيرا ولكن « الجرح » الذي هز

المجتمع هو هذه الصورة الجارحة المعتمدة التي قامت بتعرية أخفى العلاقات وأهمها في المجتمع .

وحين نقرأ مثل هذه التحليلات في الكتاب ، نتساءل عما إذا كان قاسم أمين قد قرأ « بيت اللعنة » لهنريك إبسن ، و « ومهنة مسز دارين » لبرنارد شو . ولكنه على أي حال لم يتأخر كثيرا عن معالجة هذه القضايا من هذه الزوايا بالذات . فالمسرحية الأولى صدرت سنة ١٨٧٩ والثانية سنة ١٨٩٣ . وقد قضت أجيال قبل أن يكتب كاتب كبير مثلاً سلامة موسى في هذه المعاني ، ويعد جديدا وجريئا .

ولا ينقص قاسم أمين الحس الاجتماعي ، فهو يسجل في بعض تحليلات الكتاب هذه الملاحظة الذكية « ... يمكن أن يقال انه كلما ارتفعت المرأة مرتبة في اليسر زاد جهلها . ان آخر طبقة من نساء الأمة ، وهي التي تسكن الأرياف ، هي أكملهن عقلا ، بنسبة حالها . فالمرأة الفلاحة تعرف كل ما يعرفه الرجل الفلاح . متذركهما في مستوى واحد لا يزيد أحدهما على الآخر تقريبا ، مع اننا نرى أن المرأة في الطبقة العالية او الوسطى متأخرة على الرجل بمسافات شاسعة . ذلك لأن الرجال في هذه الطبقات تربت عقولهم واستنارت بالعلوم ، ولم تتبعهم نساؤهم في هذه الحركة ، بل وقفت في الطريق . وهذا الاختلاف هو أكبر سبب في شقاء الرجل والمرأة معا ، ..

أمر آخر يجعل هذه التحليلات والتأملات التي يسوقها قاسم أمين أهم في فهمه من « المطالب » التي نادى بها ، هو أن القارئ المتأمل سوف يلاحظ أن ما طالب به فعلا لم يكن كل ما يتمنى أن يطالب به . انه طالب بما تصور أنه أقصى ما يستطيع أن يتحمله المجتمع ، ولكن الصور التي يعرفها والملاحظة التي يسوقها لا تترك

مجالا للشك في أنه كان يطلب للمرأة التعليم بغير حد ، والمساواة الفعلية بالرجل في شتى المجالات .

لعلنى استطردت استطرادا سريعا من حيث تركنا قاسم أمين شابا في باريس يتأمل ويقارن ، الى كتابه الذي صدر بعد ذلك بزمان . ربما كان هذا احساسا بأن هذه الفترة هي التي بلورت افكاره الأولى .

أمر آخر ساهم في بلورة افكاره بعد ذلك . فقد عاد من باريس والتحق بساك النيابة العامة والقضاء ، حتى أصبح مستشارا في محكمة الاستئناف سنة ١٨٩٢ . وخلال ذلك عمل في مدن أخرى كثيرة . ونظر قضايا مدنية واجتماعية كثيرة . ومرت به صور شتى واقعية من صميم المجتمع المصري . الصورة التي لا يراها ابن طبقته في « الصالونات » التي يرتادها .

★★★

كان لابد أن يثير مثل هذا الكتاب ، من مثل هذا الرجل ، الضجة التي أثارها . فلا يكاد يوجد قلم كبير أو صغير دون أن يساهم المعركة . ولا يكاد يوجد مطعن ديني أو خلقي لم ينسب الى المؤلف . وتحكمت السياسة الى درجة ما في التيارات التي هبت : فنجد جريدة وطنية كاللواء يفتح مصطفى كامل صفحاتها للهجوم على قاسم أمين وآرائه .

وكان المطعن الديني أخطر المطاعن .

والغريب أن أول الصحف التي تجرأت على الوقوف الى جانب قاسم أمين كانت « المنار » التي كان يصدرها محمد رشيد رضا تلميذ الشيخ محمد عبده ، فتقول : « اذا توهم بعض الناس أن ما ورد في كتب الفقهاء من استحسان علم كشف وجه المرأة وعدم مخالطتها الرجال دفعا للفتنة ، هو من الاحكام الدينية التي لا يجوز

تغييرها ، فاننا نقول ان هذا الاعتراض مردود بأن الأحكام الشرعية جاءت في الغالب مطلقة وجارية على ما تقتضيه العادات الحسنة ومكارم الأخلاق ووكلت فهم الجزئيات الى أنظار المكلفين ، ووضعتها تحت اجتهادهم ، وعلى هذا جرى العمل بعد وفاة النبي بين أصحابه واتباعه ، .

وليس هذا غريبا . ولعل مهمة قاسم أمين كانت تصبح أكثر صعوبة لو لم يسبقه الشيخ محمد عبده الى معركة تطهير الدين من الخرافات التي علقت به عبر عصور الانحطاط .

لم يعيش قاسم أمين طويلا . لقد أصدر بعد ذلك كتابا حول نفس القضية بعنوان « المرأة الجديدة » ، لم يتراجع فيه خطوة ازاء الحملات ، بل زاد تأكيدا لرايه ، وطالب صراحة ببعض ما كان لا يصرح به كحق المرأة في العمل وفي التعليم بشتى مراحلها . وساهم في الحياة العامة مساهمات قيمة كان أبرزها دوره الى جانب صديقه سعد زغلول في تأسيس الجامعة المصرية . ومات قاسم أمين سنة ١٩٠٨ وهو في الخامسة والأربعين من العمر .

ولكن حركة التنوير كانت قد بدأت تلتقط أنفاسها من جديد . وبعد موته بأحد عشر عاما نشبت ثورة أخرى ، قادها رفاق شبابه الذين شاهدوا معه مصرع الثورة العربية .

أحمد بهاء الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كل مسألة من المسائل التي أجملتها في هذه الأسطر القليلة يصح أن تكون موضوعا لكتاب على حدة . وقد عملت الاختصار فيها حتى ترتبط تلك المسائل بعضها ببعض كأنها حلقات سلسلة واحدة . وغاية ما أريد هو أن أستلفت الذهن الى موضوع قل عبد المفكرين فيه ، لا أن أضع كتابا يوفى الكلام في شأن المرأة ومكانتها من الوجود الانساني ، وقد يوضح مثل هذا الكتاب بعد سنين متى نبتت هذه البفرة الصغيرة ، ونما نباتها في أذهان أولادنا ، وظهرت ثمراتها ، وعملوا على اقتطافها والانتفاع بها .

ويرى المطلع على ما أكتبه أنى لست ممن يطمع في تحقيق أماله في وقت قريب ، لأن تحويل النفوس الى وجهة الكمال في شئونها مما لا يسهل تحقيقه ، وانما يظهر أثر العاملين فيه ببطء شديد في أثناء حركته الخفية . وكل تغيير يحدث في أمة من الأمم وتبدل ثمرته في أحوالها فهو ليس بالأمر البسيط ، وانما هو مركب من ضروب من التغيير كثيرة تحصل بالتدرج في نفس كل واحد شيئا فشيئا ، ثم تسرى من الأفراد الى مجموع الأمة ، فيظهر التغيير في حال ذلك المجموع نشأة أخرى للأمة .

وما نحن فيه اليوم ليس في الطاقة البشرية تغييره في الحال . ليس من العار علينا أننا وجدنا في مثل هذه الحالة ، لأن كل عصر لا يسأل الا عن عمله . وانما العار أن نلظن في أنفسنا الكمال ، وننكر تقائصنا ، وندعى أن عوائدنا هي أحسن العوائد في كل

زمان ومكان ، وأن نعانده الحق ، وهو واحد لا يحتاج في تقريره الى تصديق منا به ، وكل ما نقوله أو نفعله لانكاره لا يؤثر فيه شيء ، وانما يؤثر فينا أثر الباطل في أهله ، ويقوم حجابا بيننا وبين اصلاح أنفسنا ، اذ لا يمكن لامة أن تقوم باصلاح ما الا اذا شعرت شعورا حقيقيا بالحاجة اليه ثم بالوسائل للوصول له .

لا اظن أنه يوجد واحد من المصريين المتعلمين يشك في أن أمته في احتياج شديد الى اصلاح شأنها . فهؤلاء المتعلمون الذين أخطبهم اليوم أقول ان عليهم تبعة ما نالهم له في عصرنا هذا ، ولا يليق بمعارفهم ولا بعزائهم أن يسجلوا على أنفسهم وعلى أمتهم العجز واليأس والقنوط . فان ذلك صورة من صور الكسل ، او مظهر من مظاهر الجبن ، أو حال من أحوال من لا ثقة له بنفسه ولا بأهله ولا بملته ولا بشرعه ولا بالله ، وأراهم بهذا يستسلمون الى تيارات الحوادث تتصرف فيهم كما تتصرف في الجماد والنبات ، وتقذف بهم الى حيث يحبون أو لا يحبون .

قد طرقت بابا من أبواب الاصلاح في أمتنا ، والتمست وجهها من وجوهه في قسم من أفراد الأمة له الأثر العظيم في مجدها ، وآتيت في ذلك بما أظنه صوابا ، فان أخطأت فلي من حسن النية ما أرجو معه غفران سيئة خطئي ، وان أصبت - كما اظن - وجب على أولئك المتعلمين أن يصلوا على نشر ما أودعته في هذه الورقات وتأيينه بالقبول والعمل .

تمهيد

حالة المرأة في الهيئة الاجتماعية

(تابعة لحالة الآداب في الأمة)

انى أدعو كل محب للحقيقة أن يبحث معى فى حالة النساء
المصريات ، وأنا على يقين من أنه يصل وحده الى النتيجة التى وصلت
اليها ، وهى ضرورة الإصلاح فيها . هذه الحقيقة التى أنشرها اليوم
شغلت فكرى مدة طويلة ، كنت فى خلالها أقلبها وأمتحنها وأحللها ،
حتى اذا تجردت عن كل ما كان يختلط بها من الخطأ استولت على
مكان عظيم من موضع الفكر منى ، وزاحمت غيرها ، وتغلبت عليه .
وصارت تشغلنى بورودها ، وتنبهنى الى مزاياها ، وتذكرنى بالحاجة
اليها ، فرأيت أن لا مناص من ابرازها من مكان الفكر الى فضاء
الدعوة والذكر .

ومن أحكم الأشياء التى يدور عليها تقدم النوع الانسانى
ويؤكد حسن مستقبله هذه القوة الغريزية التى تدفع الانسان الى
نشر كل فكرة علمية أو أدبية متى وصلت الى غاية نموها الطبيعى
فى عقله واعتقده أنها تساعد على تقدم أبناء جنسه ، ولو تيقن
حصول الضرر لشخصه من نشرها . تلك قدرة يدرك سلطانها من
وجد فى نفسه شيئاً منها . يشعر أنه ان لم يسابقها الى ما تنفع
اليه ، ولم يستنجد ببقية قواه لمعانتها على استكمال ما تهيات له .
غالبته ان غالبها ، وقاومته ان قاومها وقهرته ان عمل على قهرها ،
وظهرت فى غير ما يجب من مظاهرها ، كأنها الفاز المحبوس . لا يكتم

بالضغط ، ولكم: الضغط يحدث فيه فرقة قد تأتي على حلال
ما حواه .

والبراهين على ذلك كثيرة في الماضي ، فان تاريخ الامم ملوئ
بالمناقشات والجدل والجلاد والحروب التي قامت في سبيل استعلاء
فكر على فكر ومنهج على منهج ، وكانت الغلبة تارة للحق وأخرى
للباطل ، وكانت الامم الاسلامية على هذه الحال في القرون الأولى
والوسطى . ولم يزل الامر على ذلك أو يزيد في البلاد العربية التي
يصح أن يقال فيها ان حياتها جهاد مستمر بين الحق والباطل والخطأ
والصواب : جهاد داخل بين افراد الأمة في جميع فروع المعارف
والفنون والصنائع ، وجهاد خارجي بين الامم بعضها مع بعض ،
خصوصا في هذا القرن الذي ألفت فيه الاختراعات الحديثة المسافات
والأبعاد ، وحسنت الحدود الفاصلة والأمستوار المانعة ، حتى ان
الأشخاص الذين ساحوا في جميع أنحاء الأرض يعدون بالآلاف .
واذا ألف رجل من مشاهيرهم كتابا ترجم في أثناء طبعه وظهر في
خمس أو ست لغات في آن واحد !

ولم يركن الى حب السكينة الا اقوام على شاكلتنا ، فقد
اهملنا خدمة عقولنا حتى أصبحت كالأرض البائرة التي لا يصلح
فيها نبات ، وحتى مال بنا الكسل الى معاداة كل فكر صالح مما يعده
أهل الوقت حديثا غير مألوف سواء كان من السنن الصالحة الأولى
أو قضت به المصالح في هذه الأزمنة .

وكثيرا ما يكتفى الكسول وضعيف القوة في الجدل بأن يقذف
بكلمة باطلة على حق ظاهر يريد أن يدفعه ، فيقول تلك بدعة في
الاسلام . وما يرمى بهذه الكلمة الا حب التخلص من مشقة الفهم
أو الخروج من عناء العمل في البحث أو الاجراء : كان الله خلق
المسلمين من طينة خاصة بهم ، وأقالهم من أحكام النواميس الطبيعية
التي يخضع لسلطانها النوع الانساني ومآثر المخلوقات الحية

سيقول قوم ان ما أنشروه اليوم بدعة • فاقول : نعم • أتيت
ببدعة ، ولكنها ليست فى الاسلام ، بل فى العوائد وطرق المعاملة
التي يحمد طلب الكمال فيها •

لم يعتقد المسلم أن عوائده لا تتغير ولا تتبدل ، وأنه يلزمه
أن يحافظ عليها الى الأبد ؟ ولم يجز على هذا الاعتقاد فى عمله مع
أنه هو وعوائده جزء من الكون الواقع تحت حكم التغير والتبدل
فى كل آن ؟ أيقدر المسلم على مخالفة سنة الله فى خلقه ، اذ جعل
التغير شرط الحياة والتقدم والوقفة والجشود مقترنين بالموت
والتأخر ؟ أليست العادة عبارة عن اصطلاح الأمة على سلوك طريق
خاصة فى معيشتهم ومعاملاتهم حسبما يناسب الزمان والمكان ؟
من ذا الذى يمكنه أن يتصور أن العوائد لا تتغير بعد أن يعلم أنها
ثمرة من ثمرات عقل الانسان وأن عقل الانسان يختلف باختلاف
الأماكن والأزمان ؟ المسلمون منتشرون فى أطراف الأرض ، فهل
هم أنفسهم متحطون فى العادات وطرق المعاش ؟ من ذا الذى يمكنه
أن يدعى أن ما يستحسنه عقل السودانى يستحسنه عقل التركى
أو الصينى أو الهندى ، أو أن عادة من عادات البدوى توافق أهل
الحضر ، أو يزعم أن عوائد أمة من الأمم - مهما كانت - بقيت
جميعها على ما كانت عليه من عهد نشأتها بدون تغيير ؟

والحقيقة أن لكل أمة فى كل مدة من الزمن عوائد وآدابا
خاصة بها موافقة لحالتها العقلية ، وأن تلك العوائد والآداب تتغير
دائما تغيرا غير محسوس تحت سلطان الاقليم والوراثة والمخالطات
والاختراعات العلمية والمذاهب الأدبية والعقائد الدينية والنظم
السياسية وغير ذلك ، وأن كل حركة من حركات العقل نحو التقدم
يتبعها حتما أثر يناسبها فى العادات والآداب • وعلى ذلك يلزم
أن يكون بين عوائد السودانى والتركى مثلا من الاختلاف بقدر
ما يوجد بين مرتبتهما فى العقل ، وهو الأمر المشهور الذى لا ريبه
فيه • وعلى هذه النسبة يكون الفرق بين المصرى والأوروبى •

ولا يمكن أن يتصور أحد أن العادات التي هي عبارة عن طريق سلوك الانسان في نفسه ومع عائلته ومواطنيه وأبناء جنسه تكون في أمة جاهلة أو متوحشة مثلما تكون في أمة متمدنة ، لأن سلوك كل فرد منها إنما يكون على ما يناسب مداركه ودرجة تربيته .

ولهذا الارتباط التام بين عادات كل أمة ومنزلتها من المعارف والمدنية نرى ان سلطان العادة أنفذ حكما فيها من كل سلطان ، وهي أشد شئونها لصوقا بها وأبعدها عن التغيير ، ولا حول للأمة عن طاعتها الا اذا تحولت نفوس الأمة وارتفعت أو انحطت عن درجتها في العقل ، ولهذا نرى أنها تتغلب دائما على غيرها من العوامل والمؤثرات حتى على الشرائع . ويؤيد ذلك ما نشاهده كل يوم في بلادنا من أن القوانين واللوائح التي توضع لاصلاح حال الأمة تنقلب في الحال الى آلة جديدة للفساد . وليس هذا بغريب . فقد تتغلب العادات على الدين نفسه فتفسده وتمسحه بحيث ينكره كل من عرفه .

وهذا هو الأصل فيما نشهده ويؤيده الاختبار التاريخي من التلازم بين انحطاط المرأة وانحطاط الأمة وتوحشها ، وبين ارتقاء المرأة وتقدم الأمة ومدنيتها . فقد علمنا أن حال المرأة في ابتداء تكون الجمعيات الانسانية كانت لا تختلف عن حالة الرقيق في شيء ، وكانت واقعة عند الرومان واليونان مثلا تحت سلطة أبيها ثم زوجها ثم من بعده أكبر أولادها . وكان لرئيس العائلة عليها حق الملكية المطلقة فيتصرف فيها بالبيع والهبة والموت متى شاء ، ويرثها من بعده ورثته بما عليها من الحقوق المخولة لملكها . وكان من المباح عند العرب قبل الاسلام أن يقتل الآباء بناتهم ، وأن يستمتع الرجال بالنساء من غير قيد شرعى ولا عدد محدود . ولا تزال هذه السلطة الآن سائدة عند قبائل افريقيا وأمريكا المتوحشة . وبعض الأمم الآسيوية يعتقد أن المرأة ليس لها روح خالدة ، وأنها لا ينبغي

أن تعيش بعد زوجها ، ومنهم من يقسمها الى ضيفه اكراما له كما يقدم له أحسن متاع يمتلكه .

كل هذا يشاهد في الجمعيات الناشئة التي لم تقسم على نظامات عمومية بل كل ما فيها يقوم بروابط العائلة والقبيلة ، والقوة هي القانون الوحيد الذي تعرفه . وهكذا الحال الآن في البلاد التي تدار بحكومة استبدادية لأنها تحكم كذلك بقانون القوة .

أما في البلاد التي ارتقت الى درجة عظيمة من التمدن فانا نرى النساء أخذن يرتفعن شيئا فشيئا من الانحطاط السابق ، وصرن يقطعن المسافات التي كانت تبعدن عن الرجال : هذه تجبو وتلك تخطو وهذه تمشي وتلك تعدو ، كل ذلك بحسب حال الجمعية التي تنتسب اليها ودرجة المدنية فيها . فالمرأة الأمريكية في أول صف، ثم تتلوها الانجليزية ، وتأتي بعدها الألمانية ، وتليها الفرنسية ثم النمساوية ثم التليانية ثم الروسية الخ . . . كلها نفوس شعرت أنها حقيقة بالاستقلال ، فهي تبحث عن الوسائل لنيله ، وأنها جديرة بالحرية فهي تسعى للوصول اليها ، وأنها من نوع الانسان فهي تطالب بكل حق للانسان .

والغربي الذي يحب أن ينسب كل شيء حسن الى دينه يعتقد أن المرأة الغربية ترقى لأن دينها المسيحي ساعدها على نيل حريتها، ولكن هذا الاعتقاد باطل ، فإن الدين المسيحي لم يتعرض لوضع نظام يكفل حرية المرأة ولم يبين حقوقها بأحكام خاصة أو عامة ، ولم يرسم للناس في هذا الموضوع مبادئ يهتمون بها . وقد أقام هذا الدين في كل أمة دخل فيها بلون أن يترك أثرا محسوسا في الأخلاق من هذه الجهة ، بل تشكل نفسه بالشكل الذي أفادته آياه أخلاق الأمم وعاداتها . ولو كان لدين ما سلطة وتأثير على الموائد لكانت المرأة المسلمة اليوم في مقدمة الأرض .

سبق الشرع الاسلامي كل شريعة سواء في تقرير مساواة المرأة للرجل ، فأعس حريتها واستقلالها يوم كانت في حضيض الانحطاط عند جميع الأمم ، وخولها كل حقوق الانسان ، واعتبر لها كفاءة شرعية لا تنقص عن كفاءة الرجل في جميع الأحوال المدنية من بيع وشراء وهبة ووصية من غير أن يتوقف تصرفها على اذن أبيها أو زوجها . وهذه المزايا التي لم تصل الى اكتسابها حتى الآن بعض النساء الغربيات - كلها تشهد على أن من أصول الشريعة السماح احترام المرأة والتسوية بينها وبين الرجل . بل ان شريعتنا بالفت في الرفق بالمرأة فوضعت عنها أحمال المعيشة ، ولم تلزمها بالاشتراك في نفقة المنزل وتربية الأولاد خلافا لبعض الشرائع الغربية التي سوت بين الرجل والمرأة في الواجبات فقط ، وميزت الرجل في الحقوق .

والميل الى تسوية المرأة بالرجل في الحقوق ظاهر في الشريعة الاسلامية حتى في مسألة التحلل من عقدة الزواج ، فقد جعلت لها في ذلك طرقا جديدة بالاعتبار سيأتي الكلام عنها خلافا لما يتوهمه الغربيون ويظنه بعض المسلمين .

ولم أر الا مسألة واحدة ميز الشرع فيها الرجال على النساء وهي تعدد الزوجات . والسبب في ذلك واضح يتعلق بمسألة النسب التي لا يقوم للزواج حياة بدونها ، سيأتي الكلام عليها أيضا فيما يلي . وبالجمل فليس في أحكام الديانة الاسلامية ، ولا فيما ترمي اليه من مقاصدها ، ما يمكن أن ينسب اليه انحطاط المرأة المسلمة ، بل الأمر بالعكس فانها اكتسبتها مقاما في الهيئة الاجتماعية .

ولكن واأسفاه ! قد تغلبت على هذا الدين الجميل أخلاق سيئة ورثناها عن الأمم التي انتشر فيها الاسلام ، ودخلت فيه حاملة ما كانت عليه من عوائد وأوهام ، ولم يكن العرفان قد بلغ بتلك

بأنهم حتما يصل بالمرأة الى المقام الذى أحلتها الشريعة فيه ، وكان
كبير عامل فى استمرار هذه الأخلاق توالى الحكومات الاستبدادية
علينا .

تجردت الجمعيات الاسلامية — على اختلاف الأزمان والأماكن —
من النظمات السياسية التى تحدد حقوق الحاكم والمحكوم وتخول
للمحكومين مطالبة الحاكمين بالوقوف عند الحدود المقررة لهم بمقتضى
الشريعة والنظام ، بل أخفت حكومتها الشكل الاستبدادى دائما ،
فكان لسلطانهم وأعوانه سلطة مطلقة ، فحكموا كيف شاءوا بلا قيد
لا استشارة ولا مراقبة ، وأداروا مصالح الرعية بدون أن يكون
لها صوت فيها .

نعم كان الحاكم صغيرا أو كبيرا ملزما باتباع العدل واجتناب
الظلم ، لكن من المجرب أن السلطة غير المحدودة تفرى بسوء
الاستعمال اذا لم تجد حلا تقف أمامه ورأيا يناقشها وهيئة تراقبها .
ولهذا مضت القرون على الأمم الاسلامية وهى تحت حكم الاستبداد
المطلق ، وأساء حكامها فى التصرف ، وبالفوضى فى اتباع أهوائهم
واللعب بشئون الرعاية ، بل لعبوا بالدين نفسه فى أغلب الأرملة .
ولا يستثنى منهم الا عدد قليل لا يكاد يذكر بالنسبة الى غالبهم .

اذا غلب الاستبداد على أمة لم يقف اثر فى الانفس عندما
هو فى نفس الحاكم الأعلى ، ولكنه يتصل منه بمن حوله ، ومنهم
الى من دونهم ، وينفث روحه فى كل قوى بالنسبة لكل ضعيف
متى مكنته القوة من التحكم فيها ، يسرى ذلك فى النفوس رضى
الحاكم الأعلى أو لم يرض .

كان من أثر هذه الحكومات الاستبدادية أن الرجل فى قوته
أخذ يحتقر المرأة فى ضعفها . وقد يكون من أسباب ذلك أن أول
أثر يظهر فى الأمة المحكومة بالاستبداد هو فساد الأخلاق .

قد يمكن أن يتوهم من أول وهلة أن الشخص الواقع عليه الظلم يجب العدل ويميل الى الشفقة لما يقاسيه من المصائب التي تتوالى عليه ، لكن المشاهد يدل على ان الأمة المظلومة لا يصلح جرمها ولا تنفع أرضها لنمو الفضيلة ، ولا يربو فيها الا نبات الرذيلة . وكل المصريين الذين عاشوا تحت حكم المستبدين - السابقين - وما العهد منهم ببعيد - يعلمون أن شيخ البلد الذي كان يسلب منه عشرة جنيهات كان يستردها مائة من الأهالي ، والصدقة الذي كان يضرب مائة كرباج كان عند عودته الى بلده ينتقم من مائة فلاح !

في طبيعة هذه الحالة أن الانسان لا يحترم الا القوة ولا يردع الا بالخوف .

ولما كانت المرأة ضحية اهتضم الرجل حقوقها ، وأخذ يعاملها بالاحتقار والافتهان ، ودلس بأرجله على شخصيتها . عاشت المرأة في انحطاط شديد - أيا كان عنوانها في العائلة زوجة أو أما أو بنتا - ليس لها شأن ولا اعتبار ولا رأى ، خاضعة للرجل لأنه رجل ولأنها امرأة . فتى شخصها فى شخص الرجل ، ولم يبق لها من الكون ما يسعها الا ما استتر من زوايا المنازل ، واختصت بالجهل والتحجب بأستار الظلمات ، واستعملها الرجل متاعا للذة ، يلهو بها متى أراد ، ويقذف بها فى الطريق متى شاء ، له الحرية ولها الرق ، له العلم ولها الجهل ، له العقل ولها البله ، له الضياء ولها الظلمة والنسج ، له الأمر والنهى ولها الطاعة والصبر ، له كل شيء فى الوجود وهى بعض ذلك الكل الذى استولى عليه !

من احتقار الرجل للمرأة أن يملا بيته بجوار بيض أو سود أو بزوجات متعددة يهوى الى أيهن شاء منقادا الى الشهوة مسوقا بباحث الترف وحب استيفاء اللذة غير مبال بما فرضه عليه الدين من حسن القصد فيما يعمل ولا بما أوجبه عليه من العدل فيما يأتى ...

من احتقار المرأة أن يطلق الرجل زوجته بلا سبب ...
 من احتقار المرأة أن يقعد الرجل على مائدة الطعام وحده ثم
 تجتمع النساء من أم وأخت وزوجة ويأكلن ما فضل منه ...
 من احتقار المرأة أن يعين لها محافظا على عرضها مثل أغا أو
 مقدم أو خادم يراقبها ويصحبها أينما تتوجه ...
 من احتقار المرأة أن يسجنها في منزل ويفتخر بأنها لا تخرج
 منه الا محمولة على النعش الى القبر ...
 من احتقار المرأة أن يعلن الرجال أن النساء لسن محلا للثقة
 والأمانة ...

من احتقار المرأة أن يحال بينها وبين الحياة العامة والعمل
 فى أى شئ يتعلق بها : فليس لها رأى فى الأعمال ، ولا فكر فى
 المشارب ، ولا ذوق فى الفنون ، ولا قدم فى المنافع العامة ، ولا مقام
 فى الاعتقادات الدينية ، وليس لها فضيلة وطنية ولا شعور مل ...
 ولست مبالغا ان قلت ان ذلك كان حال المرأة فى مصر الى
 هذه السنين الأخيرة التى خفت فيها نوعا سلطة الرجل على المرأة
 تبعا لتقديم الفكر فى الرجال واعتدال السلطة الحاكمة عليهم ، وراينا
 النساء يخرجن لقضاء حاجاتهن ، ويترددون على المتنزهات الصومية
 لاستنشاق الهواء ، وترويح النفوس بتسريح النظر فى الكائنات
 التى عرضها الصانع جل شأنه على نظر كل مخلوق رجلا كان أو
 امرأة . وكثير منهن يفهبن مع رجالهن الى السياحة فى بعض البلاد
 الأخرى ، وكثير من الرجال قد أعطوا نساءهن مقاما فى الحياة
 العائلية .

وهذا انما طرا على بعض الرجال من نشأة الثقة فى نفوس
 أولئك الرجال بنسائهم واطمئنانهم الى أمانتهن : وهو احترام جديد
 للمرأة .

نعم ، لا ننكر أن هذا التفسير لا يخلو من وجوه انتقاد ، لكن
سبب الانتقاد في الحقيقة ليس هو نفس التفسير ولكنه الأحوال التي
احتفت به ، وأهمها رسوخ عادة الحجاب في أنفس الجمهور الأعظم ،
ونقص تربية النساء . فلو كملت تربية النساء على مقتضى الدين
وقواعد الأدب ، ووقف بالحجاب عند الحد المعروف في أغلب المذاهب
الاسلامية لسقطت كل تلك الانتقادات ، وأمكن أن تنتفع الأمة بجميع
أفرادها نساء ورجالا .

تربية المرأة

المرأة ، وما أدراك ما المرأة • انسان مثل الرجل • لا تختلف عنه في الأعضاء ووظائفها ، ولا في الاحساس ولا في الفكر ولا في كل ما تقتضيه حقيقة الانسان من حيث هو انسان ، الا بقدر ما يستدعيه اختلافهما في الصنف •

فاذا فاق الرجل المرأة في القوة البدنية والعقلية فذلك انما لانه اشتغل بالعمل والفكر أجيالا طويلة كانت المرأة فيها محرومة استعمال القوتين المذكورتين ، ومقهورة على لزوم حالة من الانحطاط تختلف في الشدة والضعف على حسب الاوقات والأماكن •

ولا يزال الناس عندنا يعتقدون أن تربية المرأة وتعليمها غير واجبين ، بل انهم يتساءلون هل تعليم المرأة القراءة والكتابة مما يجوز شرعا أو هو محرم بمقتضى الشريعة ؟

واتذكر اني اشرت يوما على أب ، وقد رايت معه بنتا بلغت من العمر تسع سنوات اعجبني جمالها وذكاؤها ، بأن يعلمها فاجابني : « وهل تريد أن تعطيتها وظيفة في الحكومة ؟ » فاعترضت عليه قائلا : « وهل في مذهبك ألا يتعلم الا الموظفون ؟ » فاجابني : « اني اعلمها جميع ما يلزم لادارة منزلها ، ولا افعل غير ذلك » • قال هذا على وجه يشعر أنه لا يجب المناقشة في رايه • ويعني هذا الأب العنيد بادارة المنزل أن ابنته تعرف شيئا من صناعة الخياطة وتجهيز الطعام واستعمال المكواة وما أشبه ذلك من المعارف التي لا أنكر أنها مفيدة بل لازمة لكل امرأة ، ولكني أقول ولا أخشى

تكبرا انه مخطيء في توحيده ان المرأة التي لا يكون لها من البضاعة
الا هذه المعارف عندها من الكفاية ما يؤهلها الى ادارة منزلها .

ففي رأيي ان المرأة لا يمكنها ان تدير منزلها الا بعد تحصيل
مقدار معلوم من المعارف العقلية والأدبية ، فيجب ان تتعلم كل
ما ينبغي ان يتعلمه الرجل من التعليم الابتدائي على الأقل حتى يكون
لها الملم ببادئ العلوم يسمح لها باختيار ما يوافق ذوقها منها
واقفانه بالاستئصال به متى شئت .

فاذا تعلمت المرأة القراءة والكتابة ، واطلعت على أصول
الحقائق العلمية ، وعرفت مواقع البلاد ، وأجالت النظر في تاريخ
الأمم ، ووقفت على شيء من علم الهيئة والعلوم الطبيعية ، وكانت
حياة ذلك كله في نفسها عرفانها العقائد والآداب الدينية ، استعد
عقلها لقبول الآراء السليمة ، وطرح الخرافات والأباطيل التي تفتك
الآن بعقول النساء .

وعلى من يتولى تربية المرأة أن يبادرها من بداية صباحها
بتعويدها حب الفضائل التي تكمل بها النفس الانسانية في ذاتها ،
والفضائل التي لها أثر في معاملة الأهل وحفظ نظام القرابة ،
والفضائل التي يظهر أثرها في نظام الأمة ، حتى تكون تلك الفضائل
جميعها ملكات راسخة في نفسها ، ولا يتم له ذلك الا بالارشاد
القولى والقوة الصالحة .

هذه هي التربية التي أتمنى أن تحل عليها المرأة المصرية ،
ذكرتها بالأجمال ، وهي مفصلة في المؤلفات المخصصة بها في كل
اللغات ، ولا أظن أن المرأة بدون هذه التربية يمكنها أن تقوم
بوظيفتها في الهيئة الاجتماعية وفي العائلة .

بالنسبة للوظيفة الاجتماعية

ان النساء في كل بلد يقدرن بنصف سكانه على الأقل ،
فبقاؤهن في الجهل حرمان من الانتفاع بأعمال نصف عدد الأمة ،
وفيه من الضرر الجسيم ما لا يخفى .

ولا شيء يمنع المرأة المصرية من أن تشتغل مثل الغربية
بالعلوم والآداب والفنون الجميلة والتجارة والصناعة الا جهلها
وأعمال تربيتها . ولو أخذ بيدها إلى مجتمع الأحياء ، ووجهت
عزيمتها إلى مجاراتهم في الأعمال الحيوية ، واستعملت مداركها
وقواها العقلية والجسمية ، لصارت نفسا حية فعالة تنتج بقدر
ما تستهلك لا كما هي اليوم عالة لا تعيش الا بعمل غيرها ، ولكن
ذلك خيرا لوطنها ، لما ينتج عنه من ازدياد الثروة العامة والتمرات
العقلية فيه .

وانما مثلنا الآن مثل رجل يملك رأس مال عظيم فيدعه في
الصندوق ريكتفى بأن يفتح صندوقه كل يوم ليتمتع برؤية النخب،
ولو عرف لاستعمله وانتفع منه وضاعفه في سنوات قليلة .

من عوامل الضعف في كل مجتمع انساني أن يكون العدد
العظيم من أفرادها كلاً عليه ، لا عمل له فيما يحتاج اليه ، وان عمل
كان كالألة الصماء أو الغاية الصماء لا يرى ما يصدر منه .

المرأة محتاجة إلى التعليم لتكون انسانا يعقل ويريد .

بلغ من أمر المرأة عندنا أننا اذا تصورناها وجدنا من لوازم
تصورها أن يكون لها ولي يقوم بحاجاتها ويدير شئونها . كان وجود
هذا الولي مضمون في جميع الأحوال ، مع أن الوقائع أظهرت لنا
أن كثيراً من النساء لا يجلسن من الرجال من يعولهن ، فالبنت التي
فقدت أقرباءها ولم تتزوج ، والمرأة المطلقة ، والأرملة التي توفي

زوجها ، والوالدة التى ليس لها أولاد ذكور أولها أولاد قصر - كل هؤلاء المذكورات يحتجن الى التعليم ليتمكنهن القيام بما يسد حاجتهن وحاجات أولادهن ان كان لهن أولاد . اما تجردهن عن العلم فيلجنهن الى طلب الرزق بالوسائل المخالفة للأداب ، او الى التطفل على بعض العائلات الكريمة .

ويمكن أن يقال اننا لو بحثنا عن السبب الذى قد يحمل تلك المرأة المسكينة التى تبذل نفسها فى ظلام الليل لأول طالب - وما أكبر هذه المذلة على المرأة - لوجدناه فى الأغلب شدة الحاجة الى زهد من الذهب والفضة . وكلما كان الباعث على ذلك الميل الى تحصيل اللذة .

ثم انه لا تكاد تخلو عائلة مصرية من تحمل نفقات عدد من النساء اللاتي وقعن فى العوز ولا قدرة لهن على العمل للخروج منه . ويمكننا أن نعد هذا من الأسباب المانعة للعائلات من السير على قواعد الاقتصاد .

لهذا السبب وغيره نرى الاختلال الجسيم فى مالية العائلات ، فان الرجل المصرى الذى يشتغل لكسب عيشه وعيش أولاده يرى شطرا من المال الذى يجمعه ينفق على أشخاص من أقاربه أو معارفه أو ممن لا علاقة له بهم ، ولكن تلزمه الرأفة الانسانية بأن يبذل لهم من كسبه ما يستطيع كيلا يموتوا جوعا . وهم يرون أنه انما يفعل ما يجب عليه ، ومع ذلك هم قادرون على الكسب ، ولكن يحول بينهم وبينه جهلهم باستعمال ما أوتوا من القوة ، وذلك بسبب ما حرموا من التربية .

ولو فرض أن المرأة لا تخلو من زوج أو ولي ينفق عليها أفلا تكون التربية ضرورية لمساعدة ذلك العائل ان كان فقيرا ، أو تخفيف شيء من أتعال إدارة المال داخل البيت ان كان غنيا ؟ فان كانت المرأة غنية بنفسها - وهو نادر - بأن كان لها إيراد من

مقارنات ونحوها ، أفلا يفيدنا التعليم فى تدبير ثروتها وإدارة
شئونها ؟

نرى النساء كل يوم فى اضطراب الى تسليم أموالهن الى قريب
وأجنبى ، وترى وكلاءهن يشتغلون بشئون أنفسهن أكثر
ما يشتغلون بشئون موكلاتهن ، فلا يمضى زمن قليل حتى يقتنى
الوكيل ويفتقر الأصيل .

نرى النساء يضمن أختامهن على حساب أو مستند أو عقد يجهلن
موضوعه أو قيمته وأهميته لعدم ادراكهن كل ما يحتوى عليه أو
علم كفاءتهن لفهم ما أودعه ، فتجرد الواحدة منهن عن حقوقها
الثابتة بتزوير أو غش أو اختلاس يرتكبه زوجها أو أحد أقاربها
أو وكيلها ، فهل كان يقع ذلك لو كانت المرأة متعلمة ؟

على أن التعليم فى حد ذاته هو فى كل حال حاجة من حاجات
الحياة الانسانية ، وهو الآن من الحاجات الأولى فى كل مجتمع
دخلت فيه المدنية . وأصبح العلم هو الغاية الشريفة التى يسعى
اليها كل شخص يريد أن يحصل سعادته المادية والروحية .

ذلك لأن العلم هو الوسيلة الوحيدة التى يرتفع بها شأن
الانسان من منازل الضعة والانحطاط الى مراقى الكرامة والشرف .
ولكل نفس حق طبيعى فى تنمية ملكاتها الفريزية الى أقصى حد
نرمى اليه باستعدادها .

وقد جاءت الشرائع الالهية والقوانين الوضعية تخاطب النساء
كما تخاطب الرجال . والفنون الجميلة والصنائع والمخترعات
والفلسفة العالية ، كل ذلك يستلقت من المرأة ما استلقت من
الرجل . فأى نفس شريفة لا تشتاق الى مطالعتها والتمتع بكنوزها
طلباً للحقيقة وللسعادة فى الدنيا والآخرة ؟ وأى فرق بين الرجل
والمرأة فى هذا الشوق ، ونحن نرى أن الصبيان من الذكور والاناث

يستوون في الاستفهام عن كل شيء يعرض لهم ، وطلب العلم بأسباب
ما يقع تحت أبصارهم من الحوادث ؟ وربما كان الولع بذلك في
الأنثى أشد منه في الذكر .

أي نفس حساسة ترضى بالمعيشة في قفص مقصورة الجناح
مطاطاة الرأس مغمضة العينين وهذا الفضاء الواسع الذي لا نهاية
له أمامها ، والسماء فوقها ، والنجوم تلعب ببصرها ، وأرواح الكون
تناجيها وتوحى إليها بالآمال والرغائب في فتح كنوز أسرارها ؟

التكاليف الشرعية تدلنا على أن المرأة وهبت من العقل مثل
ما وهب الرجل . أيظن رجل لم يعمه الغرض أن الله قد وهبها من
العقل ما وهبها عبثا ، وأنه آتاه من الحواس وآلات الإدراك ما آتاه
لأجل أن تهملها ولا تستعملها ؟

يقول المسلمون أن النساء ربات الخدور يعمرن المنازل ، وإن
وظيفتهن تنتهي عند عتبة باب البيت . وهو قول من يعيش في عالم
الخيال ، وضرب بينه وبين الحقيقة بحجاب لا ينفذ بصره إلى
ما وراءه .

ولو تبصر المسلمون لعلوا أن اغفاء المرأة من أول واجب
عليها ، وهو التأهل لكسب ضروريات هذه الحياة بنفسها ، هو
السبب الذي جر ضياع حقوقها . فإن الرجل لما كان مسئولاً عن
كل شيء استأثر بالحق في التمتع بكل حق ، ولم يبق للمرأة حظ
في نظره إلا كما يكون لحيوان لطيف يوفيه صاحبه ما يكفيه من
لوازمه تفضلاً منه على أن يتسلل به .

مضت الأجيال عندنا والمرأة خاضعة لحكم القوة ، مغلوبة
لسلطان الاستبداد من الرجل ، وهو لم يشأ أن يتخفها إلا إنساناً
صالحاً لخصمته مسيراً بإرادته ، وأغلق في وجهها أبواب المعيشة
والكسب بحيث آل أمرها إلى العجز عن تناول وسيلة من وسائل

العيش بنفسها ، ولم يبق أمامها من طرقه الا أن تعيش ببعضها
١٠ زوجة أو مفحشة !

ولما لم يبق للعقل ولا للأعمال النافعة قيمة لديها ، وانما
بضاعتها أن تسلي الرجل وتمتعه من اللذة بجسمها بما شاء ، وجهت
جميع قواها الى التفتن في طرق استمالتة اليها والاستيلاء على أهوائه
وخواطير نفسه .

قضت تلك الأزمان الطويلة على المرأة ، ولم يمس عقلها شيء
من التربية الصحيحة ، فضعفت منها القوة العاقلة والمفكرة ، وانفرد
الحسن بالتصرف في إرادتها ، فحسها هو المميز عندها بين الخير
والشر ، هو الرائد لها في الاختيار بين النفع والضرر ، فهي تنفر
أو تميل . فان أحببت أخلصت لا عن عقل ، وصدرت منها الأعمال
الجميلة فيما تحب ولمن تحب بمحض الهوى لا بأصالة الرأي . وان
ارتكبت أكبر الجرائم غير بصيرة بالعواقب ولا عارفة بالمصائر ،
فلو كانت أدركتها العناية بتربية عقلها وتنمية الملكات الفاضلة فيها
لنمت فيها بذلك قوة الحكم على احساسها ، ولتصرفت في أعمالها
على مقتضى الحكمة وقواعد الأدب .

أضلت المرأة عقلها في ظلمات الأجيال الماضية ، ففقدت
رشدها ، وأدركها العجز عن تناول ما تشتهي من الطرق المسنونة ،
فأضطرت الى استعمال الحيلة ، وأخلت تعامل الرجل - وهو سينها
وولي أمرها - كما يعامل المسجون حارس سجنه والحفيظ عليه ،
ونمت فيها خلقة للكر الى غاية ليس ورامها منزع ، فأصبحت ممثلة
ماهرة ، ومشخصة قادرة ، تظهر في المظاهر المتضادة والألوان
المختلفة في كل حال بحسبها - كل ذلك لا عن عقل وحكمة وانما
هي حيل التعالبة .

ولكن لا لوم عليها ، وغدوها أنها ليست حرة . وانما فقدت

الحرية لأنها فقدت السلامة في قوة التمييز . بل اللوم كل اللوم
على الرجال : أريد بهم من سبقنا ممن أهملوا تربية نساتنا .

بالنسبة للوظيفة العائلية

يكفى كل انسان متفكر أن يتأمل في حالة عائلته ليتأكد أن
استمرار الحال على ما هي عليه الآن صار مما لا يمكن احتماله .

انى أكتب هذه السطور وذهنى مغمى بالحوادث التى وردت
على بالتجربة ، وأخفت بمجامع خواطرى . ولا أريد أن أذكر شيئا
منها ، لعلنى أنها ما تركت ذهننا حتى طافت به ولا خاطرا حتى
وردت عليه . فان مثال هذه الحوادث جميعها هو شئ واحد ، هو
المرض الملم بجميع العائلات ، لا فرق بين فقيرها وغنيها ، ولا بين
وضيعها ورفيعها ، وهو جهل المرأة . فقد تساوت النساء عندنا فى
الجهل مساواة غير محبوبة ، ولا يظهر اختلافهن الا فى الملبس
والحلى . بل يمكن أن يقال انه كلما ارتفعت المرأة مرتبة فى اليسر
زاد جهلها ، وان آخر طبقة من نساء الأمة ، وهى التى تسكن
الأرياف ، هى أكملهن عقلا بنسبة حالها .

المرأة الفلاحة تعرف كل ما يعرفه الرجل الفلاح . مداركهما
فى مستوى واحد ، لا يزيد أحدهما على الآخر تقريبا ، مع أننا نرى
المرأة فى الطبقة العالية أو الوسطى متأخرة عن الرجل بمسافات
شاسعة ، ذلك لأن الرجال فى هذه الطبقات تربت عقولهم ،
واستنارت بالعلوم ، ولم تتبعهم نساؤهم فى هذه الحركة ، بل
وقفن فى الطريق . وهذا الاختلاف هو أكبر سبب فى شقاء
الرجل والمرأة معا .

فالرجل المتعلم يحب النظام والتنسيق فى منزله . وله ذوق
مهذب يميل الى الأشكال اللطيفة والاحساسات الدقيقة والالتفاتات

الرقية ، ويبلغ الاهتمام بها عند بعض الأفراد حدا ينتهى الى افعال
الأمور المادية . يفهم بكلمة ، ويود لو يفهم بالاشارة . يسكت فى
أوقات ، ويتكلم فى أخرى ، ويضحك فى غيرها . له أفكار يحبها ،
ومذهب يشغله ، وجمعية يخلمها ، ووطن يعزه . له لذائذ وآلام
معنوية ، فيبكي مع الفقير ، ويحزن مع المظلوم ، ويفرح بالخير
للناس . وفى كل فكرة تتولد فى ذهنه أو احساس يؤثر على
أعضابه يود أن يجد بجانبه انسانا آخر فيشرح له ما يشعر به
ويتسامر معه . وهذا ميل طبيعى يجده كل شخص من نفسه .
فاذا كانت امرأته جاهلة كتم أفراحه وأحزانه عنها ، ولم يلبث أن
يرى نفسه فى عالم وحده وامراته فى عالم آخر ، اذ هى تعتبر أن
الرجل ما خلق فى هذه الدنيا الا ليشتري لها الأقمشة الغالية
والجواهر النفيسة ، وليصرف أوقاته فى ملاعبتها كأنه صورة أكبر
من الصور التى كان يشتريها لها والى صغرها لتلهو بها !

ومتى رأى الرجل امرأته بهذه المنزلة من الجهل بادر الى نفسه
احتقارها ، وعداها علما ، لا أثر لها فى شئونه . وهى متى رآته
أهمل وأغضى ضاق صدرها ، وطمئت أنه يظلمها ، وبكت سوء حظها
الذى ساقها الى رجل لا يقدروا قدرها ، ونبتت البغضاء فى قلبها .
ومن ثم تبتدى عيشة لا اظن أن الجحيم أشد نكالا منها ، عيشة
يرى كل منهما فيها أن صاحبه هو العدو الذى يحول بينه وبين
السعادة !

ولا يظن أن هذا يختص بنوى الأخلاق الفاسدة من الرجال
والنساء ، فقد تكون المرأة طيبة صالحة والرجل شريف الاحساس
ولكن العيشة بينهما خصام مستمر ، ولا ذنب على أحدهما ، بل
الذنب على اختلافهما فى التربية كما تقدم . ومنتهى هذه الحالة
— أن استمر الاقتران بينهما — أن يميت أحدهما حقه فى سبيل
راحة الآخر ، أو يجر كلاهما قيده الثقيل الى آخر العمر . ولكن

مهما كان حال الزوجين - وهما على ما ذكرنا من الوصف - فلا سبيل الى ارتباطهما برابطة المحبة اذا أخفت بمعناها الخاص ، ولا خسران في الدنيا يبلغ فقد لذة الحب بين الرجل والمرأة !

جاء في القصص الدينية المسطورة في الكتب السماوية أن الله خلق حواء من ضلع آدم . وفي هذا - على ما أظن - رمز لطيف الى أن الرجل والمرأة يكونان مجموعا واحدا لا يتم الا باتحادهما ، ومن هذا المعنى أخذ الغربيون تسميتهم المرأة بنصف الرجل ، وهو تعبير فصيح يدل دلالة واضحة على أن الرجل والمرأة هما شقان لجسم واحد مفترق بعضه الى بعض لیتم له الكمال بالاجتماع .

وهذا الانجذاب الغريزي الذي أوجده الله في كل المخلوقات الحية - حتى في النباتات التي يشاهد في بعضها حركة محسوسة بين الذكر والأنثى اذا آن وقت التلقيح على طريقة حار في تفسيرها علماء الطبيعة - هو أهم عنصر يدخل في تركيب الحب ، وهو يكفى لحدوث الميل بين الرجل والمرأة ، ولا يختلف في الانسان عنه في الحيوان . أما أصل هذا الانجذاب وطبيعته وسببه فهو أمر لا يزال غامضا كأصول كل الأشياء تقريبا ، وانما يرجح قسم من العلماء أنه سيال يتولد في المراكز العصبية ، فمتى وجد هذا الانجذاب بين رجل وامرأة شعرا بضرورة اقترابهما ، فاذا تلاقيا أخذت كلا منهما هزة الفرع . تتكلم عيونهما وترجم عن الاضطرابات التي تهيج قلوبهما قبل أن ينطق اللسان ، كان روحيهما صليقتان افترقتا في عالم قبل هذا العالم ، وأخذت كل واحدة منهما تبحث عن الأخرى حتى اذا التقتا وجدت كل منهما ضالتها التي كانت تنشدها . وتنشأ فيهما بعد اللقاء آمال وأمانى أكبر من مجرد التلاقي ، فتختلطان ويحدث بينهما شبه العهد على ألا تفترقا . ترى كل واحدة منهما أن لا سعادة لها الا باتصالها بالأخرى ..

لكن هذا الانجذاب المادى لا يلبث مدة حتى يأخذ في التلاشي

ويتناقص شيئا فشيئا ، فمهما كانت شدة الرغبة عند أول التلاقى
فهي صائرة الى الزوال فى زمن يختلف طوله وقصره باختلاف
الامزجة . وتضمحل تلك الآمال ، وتتساقط كل الامانى ، ويكاد
التقاطع يحل محل التواصل ، لولا ما اختص الله به الانسان من
القدرة على استدامة تلك العاطفة والاستزادة من لذة الوصال .
بما يستجلى من بهاء الأرواح وسناء العقول . فهو يضم الى المنظر
البديم الجسدانى منظرا آخر قد يكون أبدع فى اعتباره ، وهو المنظر
الروحانى العقلى . وكثيرا ما يستبدل بلذة الحس التى لا بقاء لها
لذة العقل والوجدان التى لا تنتهى أطوارها ولا تقنى مظاهرها .
يستهويه الحب لمشهد الوجه الجميل ومسود العيون ورشاقة القد
وطول الشعر ، ولكن يمتزج العشق بروحه حتى يكون كأنه طبع
لها اذا وجد بجانب ذلك الجمال لطف الشمائل ورقة النوق وبهاء
الفطنة ونفاذ العقل وسعة العرفان وحسن التدبير والحدق فى العمل
مع المحافظة على النظام فيه ونظافة الباطن والظاهر وحنو القلب
وصدق اللسان وطهارة الذمة وعظم الأمانة والاخلاص فى الولاء ،
ونحو ذلك من الفضائل المعنوية التى ترجع عند العقلاء على جميع
المحاسن الجسدية . ووجدان اللذة بهذه المعانى عنصر آخر يدخل
فى تركيب الحب أيضا - ومن هذين العنصرين يتركب الحب التام .
وأما ما يروى من أن رجلا عشق امرأة عشقا روحانيا محضا ،
أو أن آخر عشق أخرى للذة المادية ليس الا ، بلون اعتبار تلك
الصفات الأدبية ، فقد يكون لأن الأول رجل خيالى والثانى رجل
جاهل شهوى . على أن التجارب دلت على أن هذه الشهوات البتراء
ليس لها حظ من البقاء ، فهي كالنار ذات اللهب تهب وتنطفىء
بسرعة .

واليك بياننا يزيد وضوحا فى فهم ما تقدم :

اللذة الجسمانية المتحدة فى النوع مهما تخالفت فى الأفراد
فهي دائما واحدة فان أفراد اللذة المتحدة فى النوع تتشابه الى

حد تكاد لا تتميز الا باختلاف الزمان أو المكان مثلا • فما يحصل منها أولا هو ما يحصل ثانيا وثالثا ورابعا •• وهكذا •••

ومن البدهي أن تكرار لذة بعينها مهما كانت سواء كانت لذة نظر أو لذة سماع أو لذة ذوق أو لذة لمس يفضي في الغالب الى فقد الرغبة فيها فيأتي زمن لا تتنبه الاعصاب لها لكثرة تعودها اياها •

والامر بخلاف ذلك بالنسبة للذة المعنوية • هذه اللذة في طبيعتها يمكن تجدها في كل آن • تأمل مسامرة صديقين تجد أنها كنز سرور لا يفنى • متى تلاقيا يفرغ كل منهما روحه في روح الآخر ، فيسرى عقلهما من موضوع لموضوع ، وينتقل من الجزئيات الى الكليات ، ويمر على الآلام والآمال والقبيح والحسن والناقص والكمال • كل عمل أو فكر أو حادث أو اختراع يكسب عقلهما غذاء جديدا ، ويفيد أنفسهما لذة جديدة • كل مظهر من مظاهر حياة أحدهما العقلية والوجدانية ، وكل ما تحلت به نفسه من علم وأدب وذوق وعاطفة ، تنعكس منه على نفس الآخر لذة جديدة ، ويزيد في رابطة الألفة بينهما عقدة جديدة •

ومن هنا يعلم مقدار سلطان الحب الحقيقي على الانسان ، وكيف أن العارف يعتبر العشور على ذلك الحب الشريف من أكبر السعادات في هذه الدنيا • فإن كان المال زينة الحياة فالحب هو الحياة بعينها !

فهذا الحب لا يمكن أن يوجد بين رجل وامرأة اذا لم يوجد بينهما تناسب في التربية والتعليم • ويجب ألا يفهم أن الرجل المتعلم اذا لم يحب زوجته فهي يمكنها أن تحبه • فإن توهم ذلك يعد من الخطأ الجسيم ، لأن الحب الحقيقي الذي عرفت عنصريه المادى والمعنوى لا يبقى الا بالاحترام ، والاحترام يتوقف على المعرفة بمقدار من تحترمه ، والمرأة الجاهلة لا تعرف مقدار زوجها !

سئل جمهور المتزوجين : هل هم محبوبون من نسائهم ؟
يجيبون : نعم . لكن الحقيقة غير ما يظنون - انى بحثت كثيرا
فى عائلات مما يقال انها فى اتفاق تام فما وجدت الى الآن زوجا
يحب امراته ولا امرأة تحب زوجها . أما هذا الاتفاق الظاهرى الذى
يشاهد فى كثير من العائلات فمعناه انه لا يوجد شقاق بين الزوجين
اما لان الزوج تعب وترك ، واما لان المرأة تركت زوجها يتصرف
فيها كما يتصرف المالك فى ملكه ، واما لانهما كليهما جاهلان
لا يدركان قيمة الحياة . وهذا الحال الاخير هو حال أغلب الأزواج
المصريين . ولا ارى ما يقرب من السعادة الا فى هذا النوع الأخير ،
وان كانت سعادة سلبية لا قيمة لها .

أما فى النوعين الأولين فقد اشترى الوفاق بثمن غال ، وهو
فناء أحد الزوجين فى سبيل ابقاء الآخر . وغاية ما يمكن أن أسلم
به هو أنه قد يشاهد فى عدد قليل من الأزواج شئ يقرب من المودة
يظهر فى بعض الأحيان ، ثم يختفى ، وهو استثناء يؤيد القاعدة
وهى علم الحب : علم الحب من طرف الزوج ، لأن امراته متأخرة
عنه فى العقل والتربية تأخرا فاحشا بحيث لا تكاد توجد مسالة
يمكن أن يتحدثا فيها لحظة بسرور متبادل ، ولا يكاد يوجد امر
يتفقان فى الحكم عليه برأى واحد . ولأنها بعيدة عن العواطف
والمعاني والأشغال التى يميل اليها ، ومغمورة فى شئون ليس لها
من ميلة نصيب ، حتى انها فى الأمور التى هى من عملها ، وترى
انها خلقت لاجلها ، لا يرى منها زوجها ما يروق نظره . فاكثرت
النساء لم يتعودن تسريح شعورهن كل يوم ، ولا الاستحمام اكثر
من مرة فى الاسبوع ، ولا يعرفن استعمال السواك ، ولا يعتنين
بما يلى البدن من الملابس مع أن جودتها ونظافتها لها أعظم تأثير
فى استمالة الرجل ، ولا يعرفن كيف تتولد الرغبة عند الزوج ،
وكيف يحافظ عليها ، وكيف يمكن تنميتها ، وكيف تكون موافاتها ،

ذلك لأن المرأة الباهلة تجهل حركات النفس الباطنة ، وتغيب عنها معرفة أسباب الميل والنفور ، فاذا أرادت أن تستميل الرجل جاءت في الغالب بعكس ذلك .

وأما علم الحب من طرف المرأة فلانها لا تفوق معنى الحب . ولو أردنا أن نحلل احساسها بالنسبة لزوجها نجد أنه يتركب من أمرين : ميل إليه من حيث هو رجل أبيع لها أن تقضى عنه شهواتها ، وشعور بأن هذا الرجل نافع لها لتفصيل بحاجات معيشتها . أما ذلك الامتزاج بين روحين اختسارت كل منهما الأخرى من بين الأكلاف امتزاجا تاما يؤلف منهما هويودا واحدا ، كأن كلا منهما صوت والآخر صدى . ذلك الاخلاص التام الذى ينسى الانسان نفسه ولا يدع له فكرا الا فى صاحبه ، ذلك الاخلاص لا نجد له مثالا اظهر من حب الزائلة لولدها - فهي بعينة عنه بعد السوء عن الأرض ، لأن الحب بهذه الدرجة ان لم يكن طبيعيا كحب الأم لولدها فهو ثمرة عزيزة لا تطلب الا عند النفوس العالية التى تغلبت فيها العواطف الكريمة على الاستئثار .

والزوجة المصرية - مها كانت - لا تعرف من زوجها سوى أنه طويل أو قصير ، أبيض أو أسود . أما قيمة زوجها العقلية والأدبية وسيرته وطهارته ذمته ودقة احساسه ومعارفه وأعماله ومقاصده فى الوجود ، وكل ما تصاغ منه شخصية الرجل منا ويصير به الى أن يكون محترما محبوبا ممدوحا فى أمته - فهذا لا يصل الى عقلها شيء . ولأن وصل فلا يؤثر على منزلته فى نفسها . وعلى هذا يكون أول من يجهل الرجل زوجته . فكيف يظن أنها تحبه ؟

نرى نساءنا يمدحن رجالا لا يقبل رجل شريف أن يمد لهم يده ليصافحهم ، ويكرهن آخرين ممن نعتبر وجودهم شرفا لنا

ذلك لان المرأة جاهلة تحكم على الرجل بقدر عقلها ، فاحسن رجل عندها هو من يلاعبها طول النهار وطول الليل ، ويكون عنده مال لا يقنى لقضاء ما تشتهيه من الملابس والحلى والحلوى . وأبغض الرجال عندها من يقضى أوقاته فى الاشتغال فى مكتبه . كلما رآته جالسا منحني الظهر مشغولا بمطالعة كتاب غضبت منه ، ولعنت الكتب والعلوم التى تسلب منها هذه الساعات ، وتختلس الحقوق التى اكتسبتها على زوجها . ومن هذا يتولد على السوام نزاع لا ينتهى الا بنزاع جديد ، ولا يدرى الزوج المسكين ماذا يصنع اذا أراد أن يجمع بين هذين العدوين : الزوجة والعلم . أراه فى حيرة أشد من الرجل الذى جمع بين زوجتين . فقد رأينا أحيانا كثيرة مظاهر الوفاق بين زوجتين لرجل واحد . وما سمع قط أن امرأة مصرية ممن نعى رضيت بمباشرة العلم !

ومن البدهى أن الرجل الذى يكون هذا حاله ينتهى بفقد كل استملاء للعمل ، لأن العلم لا يثمر الا اذا كان العقل متمتعا بالهدوء والسكون خاليا عن الاضطراب والتشويش ، ولأن الرجل يطلب راحته وهى فى يده امرأته ولكنها تبخل بها عليه .

رأينا مما تقسم أن المرأة المصرية لا تجد ذوق الحب خصوصا اذا كان زوجها متعلما يصرف وقته فى الأعمال النافعة .

قد يقال ان الحب الذى تكلمت عنه هو من كمال السعادة ، وليس من الأمور الضرورية التى لا يستغنى عنها فى الزواج ، وانه عند فقده يمكن أن يعوض بصفات أخرى عند الزوجة ، ويكفى أن تكون المرأة رفيقة لزوجها شريكة له فى المنافع والمضار ، ولذلك فهى تساعد على حاجات الحياة ، ليتم له بعض المساعدة - هذا يمكن أن يكون ، ولكن كيف الوصول اليه أيضا مع جهل المرأة ؟

قلت ان المرأة الفلاحة مع جهلها هى زميلة الرجل فى كل أعماله ، وهى قائمة بخدمة منزلها ومساعدة زوجها . ذلك سهل

لان العيشة فى الأرياف ساذجة بقوة تقريبا وحاجات العائلة قليلة . أما فى المدن التى ترقى فيها المعيشة وكثرت الحاجات وتضعبت طرق المنافع وبلغت فيها ادارة المنزل درجة ادارة مصلحة من كبريات المصالح ، فالمرأة التى يسلم اليها زمامها لا يمكنها أن تديرها الا بالتعليم والتربية .

والحقيقة أن ادارة المنزل صارت فنا واسعا يحتاج الى معارف كثيرة مختلفة . فعلى الزوجة وضع ميزانية الايراد والمنصرف بقدر ما يمكن من التدبير حتى لا يوجد خلل فى مالية العائلة ، وعليها مراقبة الخدم بحيث لا يفلتوا من مراقبتها ، وبغير هذا يستحيل أن يؤدوا خدمتهم كما ينبغي . وعليها أن تجعل بيتها محبوبا الى زوجها فيجد فيه راحته ومسرته اذا أوى اليه ، فتحلوا له الإقامة فيه ، ويلذ له المطعم والمشرب والمنام ، فلا يطلب المفر منه ليمضى أوقاته عند الجيران أو فى المحلات العمومية . وعليها - وهو أول الواجبات وأهمها - تربية الأولاد جسما وعقلا وأدبا .

وظاهر أن تطبيق هذه الواجبات التى ذكرتها بالاجمال على العيشة الجارية بالتفصيل يستدعى عقلا واسعا ومعلومات متنوعة وذوقا سليما ، ولا يتأتى وجود ذلك فى المرأة الجاهلة وخصوصا ما يتعلق منها بتربية الأطفال .

بالفنا فى نسيان أن الأولاد هم صناعة الوالدين وأن الأمهات لهن النصيب الأوفر فى هذه الصناعة . بالفنا فى اعتقاد أن الله يخرج الفاسد من الصالح ويخرج الصالح من الفاسد ، وأنه يوزع العقول ويهب الصفات كما يشاء ، وهو اعتقاد صحيح اذا أخذ من جهة أن الله قادر على كل شيء ، ومن متناول قدرته أن يفعل مثل ذلك . فان كان المقصود أن الله يمكنه أن يفعل مثل هذا فلا شك فى قدرته سبحانه وتعالى ، وليس من يتنازع فى أنه لو شاء لفعل ذلك ، كما أنه لو شاء لجعل الناس أمة واحدة ، ولأنبت الحيوان

من الأرض ، لكن الله وضع للعالم سنة وللحياة نظاما ولل مخلوقات
نواميس تجري عليها أحكامها :

« فطرة الله التي فطر الناس عليها • لا تبديل لخلق
الله • ذلك الدين القيم » ..

وتاريخ الانسانية من عهد وجودها على الأرض الى الآن أيد
ثبات هذه السنن واستمرارها •

من أكبر مظاهر حكمته جل شأنه هذه الحقيقة التي كشفها
لنا العلم ، وهي أن كل فرد من الأنواع الحية - وفيها النوع
الانسانى - ليس الا نسخة مطابقة للأصل المتولد منه ، ففيه صورة
نوعه الكلى ، وفيه صورة والديه خصوصا ، بمعنى أن هذا الفرد
يحتوى أولا على الخواص المميزة لنوعه وعلى الصفات الخاصة بأبويه •

ودلت الاكتشافات الحديثة أيضا على أن كل الملكات العقلية
والأدبية فى الانسان انما هى مظاهر من وظائف المخ ، كما أن
الصفراء من عمل وظيفة الكبد • وما يسمى عقلا أو عاطفة فلا عمل
له الا عمل تلك الوظائف ، وعملها تابع لحالة الأعصاب والمخ •
وانما مادة تلك الأعضاء متنوعة من الأصل الذى تولدت منه ،
فلا ريب أن يكون لها تبعية عظمى لذلك الأصل • ثم من الظاهر
أن الجسم لا يستغنى فى نموه وبقائه بما دخل فيه من تلك المادة
الأولى ، بل لابد فى النمو والبقاء من التربية والغذاء • فكذاك حال
العقل والملكات لا يستغنى بما أودعته المراكز والقوى من الاستعداد
الأول ، بل لابد فى ظهور أثرها وسيرها فيما أعلت له من الغذاء
الذى يوفىها والتربية التى تلائمها • فالوراثة والتربية هما الأصلان
للإنسان - ترجع اليهما شخصية الطفل ذكرا كان أو أنثى ، وليس
هناك شيء وراء ذلك •

فبالوراثة يكسب الطفل استعدادا لكل ميل كان عليه الوالدان.

صالحا كان أو فاسدا ، ويرتكز فيه ذلك الاستعداد وهو في بطن أمه . فصفات الطفل مرتبطة بما كان عليه أسلافه من جهة الأم ومن جهة الأب . وبالتربية يمتلئ ذهن الطفل بالصور الواردة عليه من الانحساس وبأثرها في نفسه ألما كان أو لذة . وتعرض حسه لقبول هذه الصور موكول الى ارادة مربيه ، فهو الذي يريه ويسمعه ويذيقه ويفيده كل معلوم ، وهو الذي يعرض على وجدانه من العواطف ما يراه لائقا به ، فان لم يرد عليه من صور المحسوسات الا ما هو قليل غير متبوع بما ينشأ عنه من العواقب البعيدة ، أو لم يشعر من العواطف الا بما يظهر أثره في أقرب الأشياء من لذته الجسمية كان سريع الاندفاع مع أول خاطر يبلو له كما يفعل الطفل والمتوحش والمجنون ، وان كانت معلوماته كثيرة تحتوى على صور الأشياء ، وصور ما يحدث عنها لأول التصور ، وما ينشأ عنها فيما بعد ذلك ، وكان وجدانه رقيقا لطيفا - كان الناشئ كثير التأمل شديد التبصر بطيء الاندفاع مع أول انفعال يتأثر به من الحس والشعور ، فينشأ ويبدى ميزان يزن به أعماله ويقدر به حركاته ، ويشاهد فيه وهو في صباه الميل الى النافع والنفرة من الضار .

لا نقول ان الطفل يكون في ذلك كما يكون الرجل البالغ الرشيد ، ولكنها أوائل وجراثيم من الكمال العقلي والأدبي تصل بالتنمية والتربية الى تلك الغايات الشريفة التي يسعى اليها كل من عرف معنى الانسانية وذاق لذة الفضيلة . فسلامة العقل لا تتم الا بحسن الوارثة وحسن التربية ، وهذا ما جعل العلماء ينسبون اليوم كل فساد في الأخلاق الى مرض في المخ أو في الأعصاب موروث أو مكتسب . وان شئنا ان الولد لا يشابه أبويه في بعض الأحوال فان قانون الوراثة قد يرجعه الى أحد أسلافه القريبين .

متى حسنت التربية على الوجه الذي ذكرناه ضعف الاستعداد الذي كسبه الطفل من والديه ان كان رديفا ، وتأصل فيه استعداد

جديد يرثه عنه من يتولد منه ، ويقوى فيه ذلك الاستعداد ان كان حسنا فيبلغ غاية ما يرجى لانسان فاضل من ابوين فاضلين ، ويظهر اثر ذلك ايضا فى اولاده واعقابه ان استمر نظام التربية فيهم على الوجه الذى صار به هذا الولد رجلا صالحا . أما ان كانت التربية فاسدة ، وكل ما يرد على الطفل انما يثير فيه أهواء باطلة ، فالاستعداد الخبيث يقوى ، والاستعداد الطيب يضمحل ويموت . ويجنى على اولاده تلك الجناية التى جناها عليه والداه .

قال الغزالي فى التربية عبارة جميلة مختصرة اشتهت أن أوردما هنا وهى : « الصبى أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل ما ينقش ، ومائل الى كل ما يمال اليه به ، فان عود الخير وعلمه وعلمه نشأ عليه وسعد فى الدنيا والآخرة وشاركه فى ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب . وان عود الشر ، وأهمل أهمل البهائم ، شقى وهلك وكان الوزر فى رقبة وليه القيم عليه . وقد قال الله عز وجل :

« يا ايها الذين آمنوا قوا انفسكم واهليكم نارا » ..

والتربية تنحصر فى أمر واحد هو تعويد الطفل حسن الفعل وتحلية نفسه بجميل الخصال . والوسيلة الى ذلك واحدة هى أن يشاهد الطفل آثار هذه الأخلاق حوله ، لأن التقليد فى غريزة الطفل فيكتسب به كل ما تلزم معرفته ، فان كانت الأم جاهلة تركت ولدها لنفسه يفعل ما يزينه له عقله الصغير وشهواته الكبيرة ، ويرى من الأعمال ما لا ينطبق على محاسن الأدب فيتخلق بالأخلاق القبيحة ويعتاد العوائد الفاسدة .

ويرى الأسوة السيئة فى بيته وفى الخارج ، وكلما تقدم فى السن رسخت فيه هذه الأخلاق وكبرت معه بكبره . فاذا وصل الى سن الرجولية رأى نفسه أو رآه الناس رجلا سيئ التربية ،

ولا سبيل له بعد ذلك الى اصلاح نفسه مهما كانت ارادته ومعارفه وعقله . ويندرج هنا أن يوجد شخص يتقدم بعد بلوغه سن الرجولة في اصلاح ما فسد من ملكاته ثم ينجح في ذلك ، الا الى حد محدود .

ومن المعلوم أن الطفل لا يعيش من طفوليته الى سن التمييز الا بين النساء ، فهو دائما محاط بأمه وأخواته وعماته وخالاته وخدوماتهن وصواحبهن ويرى أباه في أوقات قليلة . فإذا كان هذا الوسط الذي ينشأ فيه طبيبا كانت تربيته طيبة ، وإن كان ميثا سات تربيته . والأم الجاهلة ليس في استطاعتها أن تصبغ نفس ولدها بصبغة الصفات الجميلة ، لأنها لا تعرفها ، وغاية ما تستطيع هو أنها تدعه يلتقط الخلال الرديئة بما يعرض له إن لم تبذر بيدها حبوبها في نفسه وتفرس فيها الملكات السيئة .

ليس من جهل الأم بقوانين الصحة أن تهمل ولدها من النظافة فيعلوه الوسخ وتتركه متشردا في الطرق والأزقة يتمرغ في الأتربة كما تتمرغ صغار الحيوانات ؟ اليس من جهلها أن تدعه كسلان يفر من العمل ويضيع وقته الذي هو رأس ماله مضطجعا أو نائما أو لاهيا مع أن سن الطفولة لا تعرف الكسل وهي من النشاط والعمل والحركة ؟ اليس من أثر جهلها أننا جميعا مصابون بشلل في أعصابنا حتى صرنا لا نتأثر من شيء مهما بلغ في الحسن والقبيح ، فإذا رأينا عملا جيدا مدحناه من طرف اللسان ، وإذا شاهدنا فعلا قبيحا استهجنناه بهز الرؤوس وظاهر من القول بدون أن نشعر بانبعاث باطنى يقهرنا على الاندفاع الى الأول والابتعاد عن الثاني ؟ اليس من جهلها أن تسلك في تاديب ولدها طريق الاخافة بالجن والنفاريت ، وأن تأخذ من وسائل صيائنه ووقايته من المضرات تعليق التعاويذ والطواف به حول القبور وفي زوايا الأضرحة وغير ذلك مما لا يبال به الجاهلون بأصول الدين وقضائل

الأعمال وله من الأثر السيئ في أنفس الناشئين ، بل في أرواح الرجال ، ما يجبر الى كل شر ويبعد عن كل خير ؟

قد صار من المقرر عندنا أن الأمهات لا يفلحن في تربية الأولاد ، حتى صار من المثل في الحطة ورداءة السير أن يقال قلائد « تربية امرأة » . على أننا نرى أن تربية المرأة في البلاد الغربية تفوق تربية الرجل ، وأن أحسن الناس تربية هم من ساعدتهم اللحر في أن تتولى تربيتهم امرأة . وليس هذا بغريب ، فإن المرأة تمتاز على الرجل بغرائز طبيعية هي بها أقوى استعدادا للنجاح في التربية ، ذلك أنها أصبر من الرجل فيما تحب ، وأنها الطف منه في المعاملة ، وأرق منه في العواطف والاحساسات . ويفتخر الغربيون بتأثير النساء في أحوالهم حتى بلوغ رشدهم ، فقد قرأت في أحد كتب « رينان » الفيلسوف الشهير ما محصله : « أن أجمل ما وضعه في مؤلفاته كان الهاما من أخته » . وقال « الفونس دوديه » الكاتب المجيد في بعض ما كتبه : « ان كنت أستحق فخرا فلامرأتى نصفه » . وأمثال هذه الشواهد كثيرة يعلمها كل من اطلع على أحوال الأوربيين ، وكلها تدل على أن تربية المرأة أمر لا يستغنى عنه ، وإن القسم الأعظم من التربية منوط بالمرأة .

وقد نجد في هدى نبينا صلى الله عليه وسلم ما يشير الى ذلك ، بل ما كان يجب أن يعد أصلا من الأصول التي نركن اليها في بناء أمورنا المالية ، حيث قال في شأن عائشة رضى الله عنها : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحبراء » ، وعائشة امرأة لم تؤيد بوحي ولا بمعجزة ، وإنما سمعت فوعت ، وعلمت فتعلمت .

أود أن كل مصرى يرى أن مسألة التربية عندنا هي أم سائر المسائل ، وأن كل مسألة غيرها مهما كانت أهميتها داخلية فيها .

١٤٧ عرف المصريون بعوائدهم وأخلاق استفادوها من حوادث تاريخية ليس هذا محل ذكرها . تلك العوائد والأخلاق ليست معروفة في

الدين ولا هي موافقة لما يستحسنه العقلاء حتى من المصريين انفسهم
وقل ما يشاهد مثلها عند غيرهم .

وقد آن الوقت على ما اظن لتربية نفوسنا تربية صحيحة متينة
علمية ، تربية تنشىء رجالا اولى علم واصالة رأى ، يجمعون بين
المعارف والأخلاق والعلم والعمل ، تربية تنقذنا من جميع العيوب
التي يقذفنا بها الأجنيى فى كل يوم وبكل لسان ، وكلها ترجع
— مهما اختلفت فى الاسم — الى سبب واحد وهو النقص فى تربية
نفوسنا . وقد اتفق جميع اهل النظر فى مصر على أن التربية هي
الدواء الوحيد لذلك الداء . وانتشر هذا الرأى الصائب فى الكتب
والجرائد وأحاديث المجالس حتى صبح أن يقال انه أصبح رأيا عاما .
وتولد عن ذلك شعور بأن مستقبل الأمة تابع لتربيتها .

ولكن أرى هم الناس موجهة الى التعليم ، ولا أرى أحدا
يلتفت الى تربية النفوس ، وأرى أن الحرص على التعليم منحصر فى
تعليم الذكور ، مع أن تهذيب الأخلاق مقسم على التعليم ، وتعليم
البنات مقسم على تعليم الذكور .

ولست ممن يطلب المساواة بين المرأة والرجل فى التعليم ،
فذلك غير ضرورى . وانما اطلب الآن ، ولا أتردد فى الطلب ، أن
توجد هذه المساواة فى التعليم الابتدائى على الأقل ، وأن يعتنى
بتعليمهم الى هذا الحد مثل ما يعتنى بتعليم البنين .

أما ما يتعلمه بعض البنات الآن فلراه غير كاف ، لانهن يتعلمن
القراءة والكتابة بالعربية وبلغة أجنبية وشيئا من الخياطة والتطريز
والموسيقى ، ولا يتعلمن من العلوم ما يستغلن منه فائدة يلتفت
اليها . وربما زادتهن تلك المعارف غرورا بأنفسهن ، فتظن الواحدة
منهن أنها متى عرفت أن تقول نهارك سعيد باللغة الفرنسية فقد
فاقت أترابها وارتفع شأنها ومسا عظمها ، ولا تتنازل بعد ذلك
لأن تشتغل بعمل من الأعمال المنزلية ، فتقضى حياتها فى تلاوة

اقاصيص وحكايات قلما تفيد الا في اثارة صور من الخيالات تطوف بها وتمثل لها عالما لطيفا تسرح فيه طرفها وهي شاخصة الى دخان السجارة التي تقبض عليها !

أكثر مما تعرفه المرأة التي يقال الآن انها متعلمة هو القراءة والكتابة ، وهذه واسطة من وسائل التعليم وليست غاية ينتهي اليها . وما بقي من معارفها فمشور تجمعها الحافظة في ريعان العمر ثم تنفلت منها واحدة بعد واحدة حتى لا يبقى شيء . أين هذه المشور من الحقائق العلمية التي يتغذى منها العقل ويتقوى بها على مطاردة الوهم ؟ - لا شيء . ينفع الانسان مثل اكتسابه ما يسمى عقلا عمليا . . أريد بذلك ما يقابل التخيل الذي يعيش به صاحبه في أوهام وهو اجس لا ترجع الى حق ثابت ، فان كل مصائب الانسان تأتي له من باب واحد وهو الخيال . وكلما تجرد الانسان عن الأوهام والخيالات قرب من السعادة ، وهو يبتعد عنها بقدر ما يبعد عن الحقيقة .

الحقيقة هي ضالة الانسان في العالم ، ويجب عليه أن يسعى وراءها بلا قصور ولا تعب . الحقيقة هي الكنز الذي أودع الله فيه كل آمال الانسان ، لا يجعلها الا من رغب فيها ومال عن سواها . الحقيقة هي بشرق السعادة لأنها وحدها الوسيلة للوصول الانسان الى كمال العقل والنفس . والتسوء مثل الرجال في الحاجة الى معرفة الحقيقة . والى اكتساب عقل سليم يحكم على نفوسهم ويرشدن في الحياة الى الأعمال الطيبة النافعة .

انظر الى الطفل تجلده يشتهي وينفر ، ويحب ويكره ، ويفرح ويحزن ، ويضحك ويبكي ، ويسكن وينضب ، وهو في كل ذلك إنما يتفعل بحس ، وينبعث بوهم ، وينقاد الى خيال . واذا أراد شيئا فمتع عنه لم يستعمل للوصول الى غرضه الا شيئا من الفش والمكر والكنب . لم ذلك ؟ لأن عقله ضعيف ومعارفه قليلة ، ولم

تصل قواه العقلية الى درجة تتمكن فيها من القياس والموازنة بين الاعمال والرغائب والآلام ، حتى تحمله على الصبر أحيانا ، وطلب المرغوب من أبوابه ووسائله الصحيحة أحيانا أخرى . والمرأة الجاهلة مثلها مثل الطفل فيما ذكرناه .

سلب الرجال ثقتهم من النساء واعتقدوا أنهم أعوان إبليس ، فلا تسمح الا ذما لخصالهن ، وتنقيصا لعقلهن ، وتحذيرا من مكرهن . وأنا لا أبرئ النساء الآن من هذه الصفات ، ولكن أرى أن التبعة ليست عليهن بل على الرجال .

هل صنعنا شيئا لتحسين حال المرأة ؟ هل قمنا بما فرقته علينا العقل والشرع من تربية نفسها وتهذيب أخلاقها وتشقيف عقلها ؟ أيخوز أن نترك نساءنا في حالة لا تمتاز عن حالة الأنعام ؟ أصبح أن يعيش النصف من أمتنا في ظلمات من الجهل بعضها فوق بعض لا يعرفن فيها شيئا مما يمر حولهن كما في الكتاب : « صم بكم عمى فهم لا يعقلون » ؟ أليس بينهن أمهاتنا وبناتنا وأخواتنا وزوجاتنا ، وهن زينة حياتنا الدنيا ، والجزء الذي لا يمكن فصله منا ، دمنا من دمهم ، ولحمنا من لحمهن ؟ أليس الرجال من النساء والنساء من الرجال ، وهن نحن ونحن هن ؟ أيتم كمال الرجل اذا كانت المرأة ناقصة ؟ وهل يسعد الرجال الا بالنساء ؟

نحن حرمانا أنفسنا من أكبر لذة في الدنيا وهي التمتع بمحبة ذوى القربى من النساء .

كل منا يفوق حلاوة الساعات التي تمر به بدون أن يشعر بها حينما يطول الحديث بينه وبين صديق له ، وتختلط أنفسهما ببعضها ببعض حتى ينهل كل عن أيهما يتكلم وأيها يسمع ، فهذا السرور يتضاعف بلا شك اذا وجد هذا التوافق بين رجل وأمه أو اخته أو زوجته ، ولكن يحول الآن بيننا وبينهن عزم التوافق بين

عقولنا وعقولهن ونفوسنا ونفوسهن ، ولهذا فانا نشفق عليهن ونحن اليهن ونعذرهن ، ولكن لا تكمل محبتنا لهن ، لأن الحب التام هو ذلك التوافق ، وهو المعلوم .

والانسان محتاج الى أن يكون محبا وأن يكون محبوبا . ومن فضل الله عليه أن وضع بجانبه أمهات وزوجات وغرس في قلوبهن محبته وفي قلبه محبتهن ، وهذه أكبر نعمة من الله علينا بها ، لأن هذه المحبة النقية الطاهرة الكاملة اذا صرفت فيما وضعت له كانت المسلية لنا في سجن الحياة ، وهونت علينا الآلام والمصائب التي لولا هذه التسلية لأفضت في بعض الأوقات بأقوى رجل منا الى اليأس . فعدم تقديرها قدرها ، وانصراف العناية عن تنميتها وتكميلها ، كفران بنعم الله وتقصير في شكره .

بقي علينا أن ندفع اعتراضا لا يمكننا السكوت عليه ، لأنه في الحقيقة هو المانع الوحيد التي اتفقت أغلب العقول على وضعه حاجزا يحول بين المرأة والتعليم ، وهو الخوف من أن التعليم يفسد أخلاقها .

رسخ في أذهان الرجال أن تعليم المرأة وغتها لا يجتمعان ، وقال الأقدمون في ذلك أقوالا طويلة وحكايات غريبة ونوادر سخيفة استدلوا بها على نقصان عقل المرأة واستعدادها للفش والحيلة ، فلو تعلمت لم يزدنها التعليم الا براعة في الاحتيال والخدعة واسترسالا مع الشهوة ، فحفظونا مثالهم واعتقدنا أن التعليم يزد تفننها في المكر ، ويعطيها سلاحا جديدا تتقوى به طبيعتها الخبيثة على ارتكاب المقاصد .

أما أن المرأة الآن ناقصة العقل شديدة الحيلة فهذا مما لا يختلف فيه إثنيان . وقد بينا أن هذه الحالة هي أثر من آثار الجهل والانحطاط اللذين عاشت فيهما أجيالا طويلة ، ومتى زال السبب فلا شك أن المسبب يتبعه . وأما كون التعليم يفسد أخلاقها فهذا

نكره ونشدد النكير عليه ، فان التعليم - خصوصا اذا كان مصحوبا
بتهديب الأخلاق - يرفع المرأة ، ويرد اليها مرتبتها واعتبارها .
ويكمل عقلها ، ويسمح لها ان تتفكر وتتأمل وتتبصر في أعمالها .
وان وقع أن امرأة تعرف القراءة والكتابة حادت عن الطريق
المستقيم ، وخاطبت حبيبها بالرسائل الغرامية ، فقد وقع أن الوفا
من النساء الجاهلات دنسن عروضهن ، وكان الرسول يبين وبين
رفيقهن خادما أو خادمة أو دالة أو جارة عجوزا .

والحقيقة أن طهارة القلب في الغرائز والطبائع . فان كانت
المرأة صالحة زادها علمها صلاحا وتقوى ، وان كانت فاجرة لم
يزدها العلم فجورا . وهكذا الحال في الرجال . وضلال فريق من
الناس بضرب من ضروب التعليم لا يمنع من تعاطيه ، فقد قال الله
في شأن كتابه :

« يفضل به كثيرا ويهدى به كثيرا . وما يفضل به

الا الفاسقين » ..

فأثر التعليم لا يمكن أن يكون ضرا محضا ، ولا يمكن أن
يكون منشأ حقيقيا لضرر . فالمرأة المتعلمة تخشى عواقب الأمور
أكثر مما تخشاه الجاهلة ، ولا تقسم بسهولة على ما يضر بحسن
سمعتها ، بخلاف الجاهلة فان من أخلاقها الطيش والخفة . وأذكر
ملاحظة واحدة تؤيد ما قدمته ، وهو أن نساء الافرنج على العموم
- مهما كان حالهن في الباطن - يحافظن على الطواهر ، فيعيش
الواحد بين رجل وامرأة يحب بعضهما بعضا أياما وأشهرا ولا يكاد
تقع منهما هفوة تظهر ما كان خافيا بينهما ، وتراهن في الطريق
سائرات مرتديات بجلايب الجسد والسكينة والوقار ، يفضضن
أبصارهن عن الرجال ، وان نظرن اليهم فمن طرف خفى . إما
نساؤنا العفيفات فيغلب فيهن أن يكون باطنهن خيرا من ظاهرهن ،
ومتى رأت الواحدة منهن رجلا نظرت اليه وتأملتة والتفتت نحوه

ولوت عنقها اليه ، ولا شعور لها بأن مثل هذه الحركات التي تصدر منها من غير تمييز تخل بشأنها وتحط من قيمتها واعتبارها . أما الفريق الآخر من النساء في بلادنا ممن طرحن العفة وجرين مع الشهوة فلا تسلم عما يصدر منهن في الطرق والمجتمعات العامة من الأمور المخلة بالأدب التي يستحى القلم أن يجرى برسمها ، هذا الفريق من الأجانب يصعب تمييزه عن الحرائر الا ببعض أمور يعرفها أهل الخلاعة .

ثم ان البطالة التي الفتها نفوس النساء عندنا ، وصارت كأنها من لوازم حياتهن ، هي أم الرذائل . ان كان نساؤنا لا يعملن شيئا في المنازل ، ولا يحترفن بصنعة ، ولا يعرفن فنا ، ولا يشتغلن بعلم ، ولا يقزان كتابا ، ولا يعبدن الله ، فبماذا يشتغلن حينئذ ؟ أقول لك - وأنت تعلم مثلى - ان ما يشغل امرأة الغنى والفقير والعالم والجاهل والسيد والخادم هو أمر واحد يتفرع الى ما لا نهاية له ، ويتشكل في كل آن بشكل جديد ، وهو ينبوع رضاها أو سخطها على حسب الأحوال ، ذلك الأمر هو علاقتها مع زوجها . فتارة تتخيل أنه يكرهها ، وتارة تظن أنه يحبها ، وأحيانا تقارنه بأزواج جاراتها ، فيخرج من هذا الامتحان الصعب كاسبا أو خاسرا ، وأحيانا تجرب ميله لتعلم هل تغير أو هو باق ، وأحيانا تدبر طريقة لتغيير قلبه على ذوى قرابته ، لتنزع منه محبتهم ان كان ودودا لهم ، ولا تغفل عن مراقبة سلوكه مع الخادmates ، وتراقب لحظاته عند دخول الزائرات ، وتجعله دائما موضوع الشك . ومن وسائل الاحتياط ألا تقبل الخادمة الا اذا كانت من شناعة الصورة وقبح المنظر وبشاعة الهيئة بحيث يطمئن قلبها وتأمين ميل زوجها اليها . ولا تستريح من هذا الشاغل الا اذا أفرغته في أذن أخرى من أمثالها . فاذا فرغت من تصويره في العبارات ، رجعت الى تمثيله في الخيالات ، وهكذا . لهذا ترى اذا اجتمعت مع جاراتها وصواحبه تصاعنت مع دخان السجاير وبخار القهوة زفراتها ،

وارتفع صوتها ، فتقص ما بينها وبين زوجها وأقارب زوجها وأصحاب زوجها ، وحزنها وفرحها وهما وسرورها ، وتفرغ كل ما فى صدرها حتى لا يبقى سر من أسرارها - ولو كان متعلقا بالفراش - الا وقد أخبرت به .

هذا اذا كانت المرأة محبة لزوجها . اما اذا كانت لا تميل لزوجها ، أو كانت غير متزوجة ، فأكبر سؤالي بماذا تشتغل حينئذ ؟ اما الأولى فانه تفكر فى طريقة للخلاص من زوجها والبحث عن سواء ، واما الثانية فأعظم همتها أن تشتغل كذلك بالبحث عن زوج أيا كان ، ولا تضيع وقتها فى حسن انتقاء الرجل الذى يصح أن يكون زوجها ، فانها انما تطلب رجلا . ومن البلى أن المرأة التى يكون هذا حالها ان كانت فاسدة الاخلاق ، ووجدت فرصة ، لا تتأخر عن انتهازها ، ولا تكلف نفسها عناء البحث عن صفات الرجل الذى تريد أن تقسم له أفضل شيء لديها ، وهو نفسها .

وعلى خلاف ذلك يكون أمر النساء المتعلقات . اذا جرى القدر عليهن بأمر ما لا يحل لهن لم يكن ذلك الا بعد محبة شديدة يسبقها علم تام بأحوال المحبوب وشماله وصفاته ، فتختاره من بين مئات والوف من تراهم فى كل وقت ، وهى تحاذر أن تضع ثقها فى شخص لا يكون أهلا لها ، ولا تسلم نفسها الا بعد مناقلة يختلف زمنها وقوة الدفاع فيها على حسب الأمزجة ، وهى فى كل حال تستتر بظاهر من التعفف ، وتخفى ما فى نفسها عن أخفى الناس بها .

والمعول فى كل ذلك هو كما ذكرته فيما مضى على الاخلاق التى نشأت عليها المرأة فى تربيتها الابتدائية . فان اعتادت أن تشغل أوقاتها بالمطالعة ومزاولة الأعمال المنزلية ، وتربت بين أهل وعشيرة رأت فيهم أسوة الجدة والاستقامة ، وغاب من بينهم كل ما يؤثر فى مشاعرهما أثرا غير صالح ، أو يهيج حسها الى أمر غير

لائق ، وتعودت أن تقيم من عقلها حاكما على قواها الحسية - كان
من النادر أن تحيد عن الطريق المستقيم ، وأن تلقى بنفسها في
غمرات الشهوات التي لا تسلم - مهما كانت - من الخطر والعذاب
والنفسم .

وبالجملة فانا نرى أن تربية العقل والأخلاق تصون المرأة
ولا يصونها الجهل ، بل هي الوسيلة العظمى لأن يكون في الأمة
نساء يعرفن قيمة الشرف وطرق المحافظة عليه . وأرى أن من يعتمد
على جهل امرأته مثله كبثل أعمى يقود أعمى مصيرهما أن يترديا في
أول حفرة تصادفهما في الطريق ؟

حجاب النساء

سبق لي البحث في الحجاب بوجه اجمالي في كتاب نشرته باللغة الفرنسية من أربع سنين مضت وما على الحق ذلكور ، وبينت هناك أهم المزايا التي سمح لي المقام بذكرها ، ولكن لم أتكلم فيما هو الحجاب ، ولا في المجد الذي يجب أن يكون عليه . وهنا أقصد أن أتكلم في ذلك .

ربما يتوهم ناظر أنني أرى الآن وقع الحجاب بالمرّة ، لكن الحقيقة غير ذلك ، فأنني لا أزال أدافع عن الحجاب واعتبره أصلا من أصول الأدب التي يلزم التمسك بها ، غير أنني أطلب أن يكون منطبقا على ما جاء في الشريعة الإسلامية وهو - على ما في تلك الشريعة - يخالف ما تعارفه الناس عندنا ، لا عرض عليهم من حب المخالفة في الاحتياط والمبالغة فيما يطبونه عملا بالأحكام حتى تجاوزوا حدود الشريعة وأضرروا بمنافع الأمة .

والذي أراه في هذا الموضوع هو أن الغربيين قد غلوا في إباحة التكتشف للنساء إلى درجة يصعب معها أن تتصون المرأة من التعرض لاختلاجات الشهوة وما لا ترضاه عاطفة الحياة . وقد تفالينا نحن في طلب التحجب والتخرج من ظهور النساء لأعين الرجال حتى صيرنا المرأة أداة من الأدوات أو متاعا من المتعنيات ، وحرمانها كل المزايا العقلية والأدبية التي أعطت لها بمقتضى الفطرة الإنسانية . وبين هذين الطرفين وسط سبيلينه - هو الحجاب الشرعي - وهو الذي أدعو إليه .

انى اشعر أن القاريء الذى سار معى الى هذه النقطة ، وتبعنى فيما دعوته اليه من وجوب تربية النساء ، ربما يستجمع قواه لقلومتى فيما أطلب من الرجوع بالحجاب الى الحد الشرعى ، ويستنجد بجميع الأوهام التى خزنتها فى ذهنه أجيال طويلة ، ليدافع عن العادة الراسخة الآن . ولكن مهما استجمع من قوة الدفاع عنها، ومهما بذل من الجهد للمحافظة عليها ، فلا سبيل الى أن تبقى زمنا طويلا .

ماذا تفيد الشجاعة والثبات فى المحافظة على بناء آل أمره الى الخراب والتهدم وقد انقض أساسه وانحلت مواده ووصل حاله من الاضمحلال الى أنك ترى فى كل سنة تمر جزءا منه ينهار من نفسه؟ اليس هذا كله صحيحا؟ اليس حقا أن الحجاب فى هذه السنين الأخيرة ليس كما كان من عشرين سنة؟ اليس من المشاهد أن النساء فى كثير من العائلات يخرجن لقضاء حاجاتهن ، ويتعاملن بأنفسهن مع الرجال فيما يتعلق بشئونهن ، ويطلبن ترويح النفس حيث يصفو الجو ويطيب الهواء ، ويصحبن أزواجهن فى أسفارهن ، ونرى أن هذا التغير حدث فى عائلات كانت أشد الطبقات تحرجا من ظهور النساء؟

إذا قارنا بين ما نشاهد اليوم وما كان عليه النساء من عهد ليس بالبعيد عنا ، حيث كان يشين المرأة أن تخرج من بيت زوجها، وأن يرى طولها أجنبى ، وكان إذا عرض للمرأة سعر اتخذ كل احتياط ليكون مبرها لئلا حتى لا يراها أحد من الناس ، وحيث كانت أم الرجل أو اخته أو ابنته تستحى أن تجلس معه على مائدة واحدة - إذا قارنا بين هذا وذاك نجد بلا شك أن هذه العادة آخذة فى الزوال من نفسها .

وكل من عرف التاريخ يعلم أن الحجاب دور من الأدوار التاريخية لحياة المرأة فى العالم . قال « لاروس » تحت كلمة

خمار : « كانت نساء اليونان يستعملن الخمار اذا خرجن ، ويخفين وجههن بطرف منه كما هو الآن عند الأمم الشرقية » . وقال : « ترك الدين المسيحي للنساء خمارهن في الطريق وفي وقت الصلاة » . وكانت النساء تستعمل الخمار في القرون الوسطى ، خصوصا في القرن التاسع ، فكان الخمار يحيط باكتاف المرأة ويجر على الأرض تقريبا . واستمر كذلك الى القرن الثالث عشر حيث صارت النساء تخفف منه الى أن صار كما هو الآن نسيجا خفيفا يستعمل لحماية الوجه من التراب والبرد . ولكن بقي بعد ذلك بزمان في اسبانيا وفي بلاد أمريكا التي كانت تابعة لها .

ومن هذا يرى القارىء أن الحجاب الموجود عندنا ليس خاصا بنا ، ولا أن المسلمين هم الذين استحدثوه ، ولكنه كان عادة معروفا عند كل الأمم تقريبا ، ثم تلاشت طوعا لمقتضيات الاجتماع وجريا على سنة التقدم والترقى . وهذه المسألة المهمة يلزم البحث فيها من جهتيها الدينية والاجتماعية .

الجهة الدينية

لو أن في الشريعة الإسلامية نصوصا تقضى بالحجاب على ما هو معروف الآن عند بعض المسلمين لوجب على اجتناب البحث فيه ، ولما كتبت حرفا يخالف تلك النصوص ، مهما كانت مضرة في ظاهر الأمر ، لأن الأوامر الإلهية يجب الاذعان لها بفون بحث ولا مناقشة . لكننا لا نجد نصا في الشريعة يوجب الحجاب على هذه الطريقة المعهودة . وانما هي عادة عرضت عليهم من مخالطة بعض الأمم ، فاستحسنوها ، وأخذوا بها ، وبالفوا فيها ، وألبسوها لباس الدين ، كسائر العادات الضارة التي تمكنت في الناس باسم الدين ، والدين براء منها . ولذلك لا نرى مانعا من البحث فيها ، بل نرى من الواجب أن نلم بها، ونبين حكم الشريعة في شأنها وحاجة الناس الى تغييرها .

جاء في الكتاب العزيز :

« قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم ويحفظوا فروجهم • ذلك اذكى لهم ، ان الله خير بما يصنعون • وقل للمؤمنات يغضضن من ابصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدن زينتهن الا ما ظهر منها • وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدن زينتهن الا لبعولتهن او آبائهن او ابناءهن او اخواتهن او نسائهن او ما ملكت ايماهن او التابعين غير اولى الاربعة من الرجال او الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء • ولا يضربن بارجلهن ليعلم ما يغطين من زينتهن » ..

أباحث الشريعة في هذه الآية للمرأة أن تظهر بعض أعضاء من جسمها أمام الأجنبي عنها غير أنها لم تسم تلك المواضع • وقد قال العلماء انها وكلت فهمها وتعيينها الى ما كان معروفا في العادة وقت الخطاب • واتفق الأئمة على أن الوجه والكفين مما شمله الاستثناء في الآية ، ووقع الخلاف بينهم في أعضاء آخر كالذراعين والقدمين • جاء في ابن عابدين : « وعورة الحرة جميع بدنها حتى شعرها النازل في الأصح خلا الكفين والقدمين على المعتمد ، وصوتها على الراجح وذراعيها على المرجوح • وتمنع المرأة الشاببة من كشف الوجه لا لأنه عورة بل لخوف الفتنة كمنعه وان أمن الشهوة لأنه أغلظ ولذلك ثبتت به حرمة المصاهرة كما يأتي في الحظر ولا يجوز النظر اليه بشهوة كوجه أمرد • فإنه يحرم النظر الى وجهها ووجه الأمرد اذا شك في الشهوة • أما بدونها فيباح ولو جميلا » (١) •

وذكر في كتاب « الروض » في المذهب الشافعي : « نظر الوجه والكفين عند أمن الفتنة من المرأة للرجل وعكسه جائز •

ويجوز نظر وجه المرأة عند المعاملة وعند تحمل الشهادة ، وتكلف كشفه عند الأداء « (١) » .

وجاء في « تبين الحقائق شرح كنز الدقائق » لعثمان بن علي الزيلعي : وبدن الحرة عورة الا وجهها وكفيها وقدميها لقوله تعالى :

« ولا يبدن زينتهن الا ما ظهر منها » .

والمراد محل زينتهن وما ظهر منها الوجه والكفان . قال ابن عباس وابن عمر . واستثنى في المختصر الأعضاء الثلاثة للابتلاء بابتائها ولأنه عليه الصلاة والسلام نهى المحرمة عن لبس القفازين والنقاب . ولو كان الوجه والكفان من العورة لما حرم سترهما بالمخيط . وفي القلم روايتان والأصح أنها ليست بعورة للابتلاء بابتائها (٢) .

وحكم الوجه والكفين وأنها ليست بعورة معروف كذلك عند المالكية والحنابلة . ولا تطيل الكلام بنقل نصوص أهل هذين المنهين .

ومما يروى عن عائشة رضى الله عنها قالت : « ان أسماء بنت أبي بكر دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق ، فقال لها يا أسماء ان المرأة اذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها الا هذا وهذا وأشار الى وجهه وكفيه » . وورد أيضا في كتاب « حسن الأموة » للسيد محمد صديق حسن خان بهادر : « وانما رخص للمرأة في هذا القدر ، لأن المرأة لا تجب بفاس من مزولة الأشياء بيديها ، ومن الحاجة الى كشف وجهها خصوصا

(١) صفحة ١٠٤ ، جزء ٢ .

(٢) صفحة ٩٦ ، جزء ٣ .

الشهادة والمحاكمة والزواج • وتضطر الى المشى فى الطرقات
لير قسميها وخاصة الفقيرات منهن • (١) •

خولت الشريعة للمرأة ما للرجل من الحقوق ، وألقت عليها
معة اعمالها المدنية والجنائية ، فللمرأة الحق فى ادارة أموالها
التصرف فيها بنفسها • فكيف يمكن لرجل أن يتعاقد معها من
ير أن يراها ويتحقق شخصيتها ؟

ومن غريب وسائل التحقق ان تحضر المرأة معلقة من رأسها
ل قسميها ، أو تقف من وراء ستار أو باب ، ويقال للرجل ها هي
ى فلانة التى تريد أن تبيعك دارها ، أو تقيمك وكىلا فى زواجها
ثلا ، فتقول المرأة بعت أو وكلت ، ويكتفى بشهادة شاهدين من
أقارب أو الأجانب على أنها هى التى باعت أو وكلت ، والحال أنه
يس فى هذه الأعمال ضمانه يطمئن لها أحد • وكثيرا ما أظهرت
لوقائع القضائية سهولة استعمال الغش والتزوير فى مثل هذه
أحوال • فكم رأينا أن امرأة تزوجت بغير علمها ، وأجرت أملاكها
ممن شعورها ، بل تجردت من كل ما تملكه على جهل منها ، وذلك
أشئ من تحجبها وقيام الرجال دونها يحولون بينها وبين من
عاملها •

كيف يمكن لامرأة محجوبة أن تتخذ صناعة أو تجارة للتعيش
بها ان كانت فقيرة ؟ كيف يمكن لخدمة محجوبة أن تقوم بخدمة
منزل فيه رجال ؟ كيف يمكن لتاجرة محجوبة أن تدير تجارتها
بين الرجال ؟ كيف يتسنى لزراعة محجوبة أن تفلح أرضها وتحصد
أرضها ؟ كيف يمكن لعاملة محجوبة أن تباشر عملها اذا أجرت
نفسها للعمل فى بناء بيت أو نحوه •

وبالجملة فقد خلق الله هذا العالم ، ومكن فيه النوع الانسانى ،

ليتمتع من منافعه بما تسمح له قواه في الوصول اليه ، ووضع
 للتصرف فيه حدودا تتبعها حقوق ، وسوى في التزام الحدود
 التمتع بالحقوق بين الرجل والمرأة من هذا النوع ، ولم يقسم الكون
 بينهما قسمة افراز ، ولم يجعل جانبا من الأرض للنساء يتمتع
 بالمنافع فيه وحدهن ، وجانباً للرجال يعملون فيه ف
 عزلة عن النساء ، بل جعل متاع الحياة مشتركا بين الصنفين
 شائعا تحت سلطة قواهما بلا تمييز - فكيف يمكن منع هذا لامرا
 أن تتمتع بما شاء الله أن تتمتع به مما هيأها له بالحياة ولواحقه
 من المشاعر والقوى ، وما عرضه عليها لتعمل فيه من الكون المشترك
 بينها وبين الرجال ، اذا حظر عليها أن تقع تحت أعين الرجال الا م
 كان من محارمها ؟ لا ريب أن هذا مما لا يسمح به الشرع ، ولم
 يسمح به العقل . لهذا رأينا أن الضرورة أجالت الثبات على هذا
 الضرب من الحجاب عند أغلب الطبقات من المسلمين ، كما نشاهد
 في الخادعات والعاملات وسكان القرى حتى من أهل الطبقة الوسطى
 بل بعض أهل الطبقة العليا من أهل البادية والقرى ، والكلم
 مسلمون ، بل قد يكون الدين أمكن فيهم منه في أهل المدن ؟

اذا وقفت المرأة في بعض مواقف القضاء خصما أو شاهدا
 فكيف يسوغ لها ستر وجهها ؟ مضت سنون والخبير وقضاة
 المحاكم أنفسهم غافلون عما يهم في هذه المسألة ، متساهلون في
 رعاية الواجب فيها ، فهم يقولون أن تكف المرأة أمامهم مستترا
 الوجه ، وهي مدعية أو مدعى عليها أو شاهدة ، وذلك منهم
 استسلام للعوائد . وليس بخاف ما في هذا التسامح من الضرر
 الذي يصعب استمراره فيما أظن ، ذلك لعدم الثقة بمعرفة الشخص
 المستتر ، ولما في ذلك من سهولة الغش . كل رجل يقف مع امرأة
 موقف المخاصة من همه أن يعرف تلك التي تخصصه ، وله في
 ذلك فوائد كثيرة ، من أهمها صحة التمسك بقولها . ولا أظن أن
 يسوغ للقاضي أن يحكم على شخص مستتر الوجه ، ولا أن يحكم

له ، ولا اظن انه يسوغ له ان يسمع شاهدا كذلك . بل اقول ان اول واجب عليه ان يتعرف وجه الشاهد والخصم خصوصا في الجنائيات . والا فإى معنى لما أوجبه الشرع والقانون من السؤال عن اسم الشخص وسنه وصناعته ومولده ؟ وماذا تفيد معرفة هذه الأمور كلها اذا لم يكن معروفا بشخصه ؟

والحكمة فى ان الشريعة الفراء كلفت المرأة بكشف وجهها عند تأدية الشهادة - كما مر - ظاهرة ، وهى تمكن القاضي من التفرس فى الحركات التى تبدو على الوجه والعلامات التى تظهر عليه ، فيقدر الشهادة بذلك قدرها .

لا زيب أن ما ذكرنا من مضار التجبب يندرج فى حكمة اباحة الشرع الاسلامى كشف المرأة وجهها وكفيها - ونحن لا نريد أكثر من ذلك .

واتفق أئمة المذاهب أيضا على أنه يجوز للمخاطب أن ينظر الى المرأة التى يريد أن يتزوجها ، بل قالوا بنديه عملا بما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم حيث قال لأحد الأنصار - وكان قد خطب امرأة - « أنظرت إليها ، ؟ قال : لا . قال : « انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » .

هذه هى نصوص القرآن وروايات الأحاديث وأقوال أئمة الفقه كلها واضحة جلية فى أن الله تعالى قد أباح للمرأة كشف وجهها وكفيها ، وذلك للحكم التى لا يصعب ادراكها على كل من عقل .

هذا حكم الشريعة الاسلامية كله يسر لا عسر فيه على النساء ولا على الرجال ، ولا يضرب بين الفريقين بحجاب لا يخفى ما فيه من الحرج عليهما فى المعاملات والمشفقة فى أداء كل منهما ما كلف به من الأعمال سواء كان تكليفا شرعيا أو تكليفا قضت به ضرورة المعاش .

أما دعوى أن ذلك من آداب المرأة فلا أخالها صحيحة لأن
لا أصل يمكن أن ترجع إليه هذه الدعوى . وإى علاقة بين الأدب
وكشف الوجه وستره ؟ وعلى أى قاعدة بنى الفرق بين الرجل
والمرأة ؟ أليس الأدب فى الحقيقة واحدا بالنسبة للرجال وللنساء
وموضوعه الأعمال والمقاصد لا الأشكال والملابس ؟

وأما خوف الفتنة الذى نراه يطوف فى كل سطر مما يكتب
فى هذه المسألة تقريبا فهو أمر يتعلق بقلوب الحائفين من الرجال
وليس على النساء تقديره ولا هن مطالبات بمعرفته . وعلى من يخاف
الفتنة من الرجال أن يفض بصره ، كما أنه على من يخافها من النساء
أن تغض بصرها . والأوامر الواردة فى الآية الكريمة موجهة الى كل
من الفريقين بغض البصر على السواء . وفى هذا دلالة واضحة على
أن المرأة ليست بأولى من الرجل بتغطية وجهها .

عجبا ! لم لم تؤمر الرجال بالتبرقع وستر وجوههم عن
النساء اذا خافوا الفتنة عليهن ؟ هل اعتبرت عزيمة الرجل أضعف
من عزيمة المرأة ، واعتبر الرجل أعجز من المرأة عن ضبط نفسه
والحكم على هواه ، واعتبرت المرأة أقوى منه فى كل ذلك حتى أبيع
للرجال أن يكشفوا وجوههم لأعين النساء مهما كان لهم من الحسن
والجمال ، ومنع النساء من كشف وجوههن لأعين الرجال مطلقا
خوف أن ينهكت زمام هوى النفس من لذة عقل الرجل ، فيسقط
فى الفتنة بأية امرأة تعرضت له مهما بلغت من قبح الصورة وبشاعة
الخلق ؟! ان زعم زاعم صحة هذا الاعتبار رأينا هذا اعترافا منا
بأن المرأة أكمل استعدادا من الرجل - فلم توضع حينئذ تحت رقعة
فى كل حال ؟ فان لم يكن هذا الاعتبار صحيحا فلم هذا التحكم
المعروف ؟

على أن البرقع والنقاب مما يزيد فى خوف الفتنة ، لأن هذا
النقاب الأبيض الرقيق الذى تبدو من ورائه المحاسن وتختفى من
خلفه العيوب ، والبرقع الذى يختفى تحته طرف الأنف والتم

والشسلقان ويظهر منه الجبين والحواجب والعيون والخصود
والاصداغ وصفحات العنق - هذان الساتران يعدان في الحقيقة من
الزينة التي تحت رغبة الناظر وتحمله على اكتشاف قليل خفي بعد
الافتتان بكثير ظهر . ولو أن المرأة كانت مكشوفة الوجه لكان في مجموع
خلقها ما يرد في الغالب البصر عنها .

ليست أسباب الفتنة ما يبدو من أعضاء المرأة الظاهرة ، بل
من أهم أسبابها ما يصدر عنها من الحركات في أثناء مشيها ،
وما يبدو من الأفاعيل التي ترشد عما في نفسها . والنقاب والبرقع
من أشد أعوان المرأة على اظهار ما تظهر وعمل ما تعمل لتحريك
الرغبة ، لأنهما يخفيان شخصيتها فلا تخاف أن يعرفها قريب أو
بعيد فيقول فلانة أو بنت فلان أو زوجة فلان كانت تفعل كذا ،
فهي تأتي كل ما تشتهي من ذلك تحت حماية ذاك البرقع وهذا
النقاب . أما لو كان وجهها مكشوفاً فإن نسبتها الى عائلتها أو
شرفها في نفسها يشعراؤها الحياء والخجل ، ويمنعانها ابتداء حركة
أو عمل يتوهم منه أدنى رغبة منها في استلقات النظر إليها .
والحق أن الانتقاب والتبرقع ليسا من المشروعات الاسلامية ،
لا للتعبد ولا للأدب ، بل هما من العادات القديمة السابقة على
الاسلام والباقية بعده . ويدلنا على ذلك أن هذه الصادة ليست
معروفة في كثير من البلاد الاسلامية وأنها لم تزل معروفة عند أغلب
الأمم الشرقية التي لم تتدين بدين الاسلام .

أما من مشروعات الاسلام ضرب الخمر على الجيوب كما هو
صريح الآية ، وليس في ذلك شيء من التبرقع والانتقاب .

هذا ما يتعلق بكشف الوجه واليدين . أما ما يتعلق بالحجاب
بمعنى قصر المرأة في بيتها والحظر عليها أن تخلط الرجال فالكلام
فيه ينقسم الى قسمين : ما يختص بنساء النبي صلى الله عليه وسلم
وأما يتعلق بغيرهن من نساء المسلمين . ولا أثر في الشريعة لغير هذين
القسمين .

أما القسم الأول فقد ورد فيه ما يأتي من الآيات :

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم . . . وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلك أظهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما » . .

« يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تغضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » .

ولا يوجد اختلاف في جميع كتب الفقه من أي مذهب كانت ولا في كتب التفسير في أن هذه النصوص الشريفة هي خاصة بنساء النبي صلى الله عليه وسلم . أمرهن الله سبحانه وتعالى بالتجرب وبين لنا سبب هذا الحكم ، وهو أنهن لسنن كأحد من النساء . ولما كان الخطاب خاصا بنساء الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكانت أسباب التنزيل خاصة بهن لا تنطبق على غيرهن ، فهذا الحجاب ليس بفرض ولا بواجب على أحد من نساء المسلمين » (١)

وأما القسم الثاني فغاية ما ورد في كتب الفقه عنه حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم نهى فيه عن الخلوة مع الأجنبية وهو : « لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم » قال ابن عابدين : « الخلوة بالأجنبية حرام إلا للملازمة مديونه هربت ودخلت خربة أو كانت عجوزا شوهاء أو بحائل - وقيل الخلوة بالأجنبية مكروهة كراهة تحریم . وعن أبي يوسف ليست بتحريم » (٢)

(١) صفحة ١٢٦ من كتاب حسن الأسوة .

(٢) صفحة ٢٢٣ ، جزء خامس .

وقال : « ان الخلوة المحرمة تنتفى بالحائل وبوجود محرم
و امرأة ثقة قادرة - وهل تنتفى أيضا بوجود رجل آخر ؟
لم أره (١) » .

بما يقال ان ما فرضه الله على نساء نبيه يستحب اتباعه
لنساء المسلمين كافة - فنجيب أن قوله تعالى : « لستن كأحد من
النساء » يشير الى عدم الرغبة في المساواة في هذا الحكم ، ونبهنا
الى أن في عدم الحجاب حكما ينبغي لنا اعتبارها واحترامها ، وليس
من الصواب تعطيل تلك الحكم مرضاة لاتباع الأسوة . وكما يحسن
التوسع فيما فيه تيسير أو تخفيف كذلك لا يجمل الغلو فيما فيه
تشديد وتضييق أو تعطيل لشيء من مصالح الحياة ، وعلى هذا
وردت آيات الكتاب المبين . قال تعالى :

« يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ..

وقال :

« ما جعل عليكم في الدين من حرج » ..

وقال أيضا :

« يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم

نسؤكم » ..

ولو كان اتباع الأسوة مطلوباً في مثل هذه الحالة لما رأينا
أحد الخلفاء المشهورين بشدة التقوى والتمسك بالسنة يجري في
عائلته على ما يخالف الحجاب . واستدل على ذلك بذكر الواقعة
الآتية :

(١) صفحة ٣٢٤ . جزء خامس .

بعث سلمة بن قيس برجل من قومه يخبر عمر بن الخطاب
 رضى الله عنه بواقعة حربية . فلما وصل ذلك الرجل الى بيت عمر
 قال : « فاستأذنت وسلمت ، فأذن لى ، فدخلت عليه ، فاذا امرأ
 جالس على مسح متكئ على وسادتين محصوتين ليفا فنبذ ال
 باحداهما فجلست عليها واذا بهو فى صفة فيها بيت عليه ستير
 فقال : « يا أم كلثوم غادنا » فأخرجت اليه خبزة بزيت فى عرضها
 ملح لم يبق . فقال : « يا أم كلثوم ألا تخرجين الينا تاكلين معنا
 من هذا ؟ » قالت : « انى أسمع عندك حس رجل » . قال :
 « نعم ولا أراه من أهل البلد » . قال فذلك حين عرفت أنه لم يعرفنى
 قالت : « لو أردت أن أخرج الى الرجال لكسوتنى كما كسا ابن
 جعفر امرأته ، وكما كسا الزبير امرأته ، وكما كسا طلحة امرأته ،
 قال : « أو ما يكفيك أن يقال أم كلثوم بنت على بن أبى طالب
 وامرأة أمير المؤمنين عمر » - فقال : « كل ، فلو كانت راضية
 لأطعمتك أطيب من هذا » (١) .

وفضلا عن كون الشرع لا يوجب ذلك الحجاب فانه مجرد عن
 الفائدة بل فيه مضرات شتى ناتى على بيانها فى المبحث الآتى :

الجهة الاجتماعية

انا نطلب تخفيف الحجاب ورده الى أحكام الشريعة الاسلامية
 لا لاننا نميل الى تقليد الأمم الغربية فى جميع أطوارها وعوائدها ،
 لمجرد التقليد أو للتعلىق بالجديد لأنه جديد ، فاننا نتمسك بعوائدها
 الاسلامية ونحترمها ، ونرى أنها مزاج الأمة التى تتماسك به
 أعضاؤها ، ولستنا ممن ينظر اليها نظرة الى الملابس يخلع ثوبا كل
 يوم ليلبس غيره . وانما نطلب ذلك لاننا نعتقد أن لرد الحجاب

الى أصله الشرعى مدخلا عظيما فى حياتنا المعاشية . لسنا فى مقام استحسان أمر واستقباح آخر لما فيه من موافقة الفوق أو منافقته . وانما نحن بصدد ما به قوام حياة المرأة أو ما به قوام حياتنا .

كلامنا الآن فى هل يلزمنا أن نعيش ونحيا ، أو يقضى على أنفسنا بأن نموت ونفنى ؟ هل علينا أن نهتز مكاننا ونرضى بما وجدنا عليه آباءنا ، والناس من حولنا يتسابقون الى منابع السعادة وموارد الرفاهية ومعاهد القوة ، ويمرون علينا سراعا ونحن شاخصون اليهم ، اما غير شاعرين بموقفنا واما شاعرين ولكننا حيارى ذاهلون ؟ أو من الواجب علينا أن ننظر كيف تقدم الناس وتأخرنا ؟ كيف تقووا وضعفنا ؟ كيف سمعوا وشقينا ؟ ثم نرجع ابصارنا كرة ثانية فى ديننا وما كان عليه أسلافنا الصالحون ، ثم نفتدى بهم فى استماع القول واتباع أحسنه وانتقاد الفعل والأخذ بأفضله ، ونسير فى طرق السعادة والارتقاء والقوة مع السائرين ذلك هو الأمر الخطير الذى وجهنا اليه نظرنا .

ها هى ذا مسألة الحجاب ، مسألة من أهم المسائل ولها مكان عظيم فى شئون الأمة . اذا ترك القارىء نفسه لعواطفه واستسلم الى عوائده ظهر له الحجاب فى مظهر حسن لأنه المفه فى صغره ونشأ بين المحجبات وعاش معهن حتى صار ذلك عادة مألوفة له . ثم انه ورثه عن آبائه وأجداده فلا يستغربه بل يميل اليه ميلا غريزيا ليس للعقل فيه مدخل وانما هو حركة ميكانيكية ليس الا . وأما اذا نزع من نفسه العوامل التى أحدثت فيه تلك العواطف ، وخلع ما البسه اياه أسلافه من أردية الوراثة ، وبعث فى المسألة من جميع جهاتها بحث من لم يتأثر الا بالتجربة التى تجرى فى الوقائع الصحيحة ، وحصل لنفسه رأيا من ملاحظاته الشخصية ، وكان ممن تنجذب نفسه الى الحق وتنبت الى السعى للوقوف عليه وتأييده لما له عندها من المنزلة العلية والمكان الرفيع ، وكان لا يفش نفسه بالتزويق والتزيين الوهميين ، وانما يسمع صوت وجدانه

السليم ويرجحه على كل هوى سواء مهما كانت درجته من التمكن
فيمن حوله من الناس - فعند ذلك يرى أن المرأة لا تكون ، ولا يمكن
أن تكون ، وجودا تاما الا اذا ملكت نفسها ، وتمتعت بحريتها
الممنوحة لها بمقتضى الشرع والفطرة معا ، ونمت ملكاتها الى أقصى
درجة يمكنها أن تبلغها . ويرى أن الحجاب على ما ألفناه قانع عظيم
يحول بين المرأة وارتقائها ، وبذلك يحول بين الأمة وتقدمها .

بيننا عند الكلام على تربية المرأة ما لها من المزايا الجليلة
والآثار الحسنة التي تترتب عليها في شؤونها نفسها وشؤون بيتها
وفي الاجتماع الذي هي فيه ، وذكرنا أن من أكبر أسباب ضعف
الأمة حرمانها من أعمال النساء ، وأن تربية الطفل لا تصلح الا اذا
كانت أمه مرباة ، وقررنا أن الولد ذكرا كان أو أنثى لا يملك صحة
ولا خلة ولا ملكة ولا عقلا ولا عاطفة الا من طريقين : الوراثة
والتربية ، واستدللنا على أن الولد يرث من أمه قدر ما يرث من
والده على الأقل ، وأن تأثير الأم في تربية الطفل بعد ولادته أعظم
من تأثيرات أبيه ، ونريد أن نبرهن هنا على أن تربية الأم نفسها
لا يمكن أن تتم اذا استمر حجاب النساء على ما هو عليه الآن ، حتى
اذل انتهى للقارىء من قبله هذا الباب رلى كيف ترتبط المسائل
بعضها ببعض ، وكيف أن الأصغر هنا يتوقف عليه أعظمها .

إذا أخذنا بنتا وحملناها كل ما يظلمه الطبيعة في الملبوسات
الابتذالية ، وربيناها على أخلاق حميدة ، ثم قصرناها في البيت ،
ومنعناها مخالطة الرجال ، فلا شك أنها تنسى بالتدريج ما تعلمته .
وتتغير أخلاقها على غير شعور منها ، وفي زمن قليل لا نجد فرقا
بينها وبين أخرى لم تتعلم أصلا ، ذلك لأن المعارف التي يكسبها
الانسان وهو في سن الصبا لا يحيط بدقائقها ومناسبتها ، ولذلك
لا يكون علمه فيها تاما كاملا ، وإنما يتم له شيء من ذلك اذا بلغ
سن الرجولة واستمر على مزاوله العمل والاشتغال ، فالصبي
يحفظ أسماء الأشياء أكثر مما يفهم ، وأكبر فائدة يستفيد منها في

هذا الطور من التعليم انما هو التعود على العمل وحب استطلاع الحقائق والاستعداد للدراسة . فان وقف سير التعليم فى هذه السن اضمحلت المعلومات المستفادة وانتشرت من ذهن شيئا فشيئا ، وكان ما مضى من الوقت فى التعلم زمنا ضائعا .

ولما كانت السن التى تحجب فيها المرأة - وهى ما بين الثانية عشرة والرابعة عشرة من عمرها - هى السن التى يبتدىء فيها الانتقال من الصبا الى الرجولية وتظهر فيها حاجة المرأة كما تظهر حاجة الرجل الى اختبار العالم والبحث عن الحياة وما تستتعيه ، وهى السن التى تزهو فيها الملكات وتظهر الميول والوجدانات ، وهى السن التى يتعلم فيها الانسان نوعا آخر من العلم انفس مما تعلمه فى المدارس ، وهو علم الحياة . وطريق تحصيل ذلك العلم انما هو بالاختلاط مع الناس واختيارهم واستعراف اخلاقهم . وفى هذه السن يبتدىء الانسان يعرف شعبه وملته ووطنه ودينه وحكومته . وفى هذه السن يبتدىء استعداد كل شخص وميله وكفاءته فى الظهور فيندفع الى الأعمال انلغاح الماء فى المنحدرات . وهى سن الآمال والرغائب والنشاط - فان حجبت فيها الفتاة ، وانقطعت عن هذا العالم ، بعدد منه كافتت الموصلة بينه وبينها مستمرة . ووقف نموها ، بل ارجعت الى القهقريّة ، ، وقلبت كل اُمام كلّ يزين نفسه بها . ونسيب كل فعار فها ، وطلاب كل بساطها ، ووضاعت اُملها وآمال الناس فيها ، ولا ذنب عليها فى ذلك فهى عاجزة مسكينة قضت عليها عادة سخيفة بالحرمان المؤبد من الترقى والكمال .

ربما يقال ان فى طوع المرأة وامكانها ان تستكمل تربيتها وتتم دراستها فى بيتها ، وهو وهم باطل ، فان الرغبة فى اكتساب العلم والتشوف لاستطلاع ما عليه الناس فى أحوالهم وأعمالهم وحب استكشاف الحقائق وكل ما يستميل النفس الى المطالعة والدرس لا يتوافر للمرأة مع حجابها ، ذلك لأن الحجاب يحبس المرأة فى دائرة ضيقة ، فلا ترى ولا تسمع ولا تعرف الا ما يقع فيها من مفاسف

الحوادث ، ويحول بينها وبين العالم الحي وهو عالم الفكر والحركة والعمل فلا يصل اليها منه شيء ، وان وصل اليها بعضه فلا يصل الا محرفا مقلوبا . اما اذا استمرت المواصلات بينها وبين العالم الخارجى فانها تكتسب بالنظر فى حوادثه وتجربة ما يقع فيه معارف غزيرة تنبث فيها من المخاطبات والمعاشرات والمشاهدة والسماع ومشاركة العالم فى جميع مظاهر الحياة . وقد يكفى فى اعانتها على كسب ذلك كله والانتفاع منه ما حصلته بالتعلم من المعارف الاولى ، وربما يمكنها ان تستغنى عن تعلم تلك المعارف الاولى اذا حسنت الفطرة وجادت القرينة .

وعلى فرض ان المرأة يمكنها فى احتجابها ان تستكمل ما نقص منها علما وادبا بقراءة الكتب فمن البلى ان كل ما تحصله من الكتب يعد من قبيل الخيالات ان لم تمكنه التجربة ويؤكد العمل . ولو عاملنا اخوتها الصبيان كما نعاملها ، او حجبناهم فى البيوت حتى بلغوا سن الخامسة عشرة لكانت النتيجة واحدة . بل لو اخذنا رجلا بلغ الأربعين من عمره وحجبناه عن العالم ، والزمناء ان يعيش بين أربعة جدران وسط النساء والأطفال والخم لشعر بانحطاط تدريجى فى قواه العقلية والأدبية ، ولا بد ان ياتى يوم يجد فيه نفسه مساويا لهم . فاذ لم يكون من الخطأ ان نتصور اننا متى علمنا بناتنا جاز لنا ان نحجبهن متى بلغن سنا مخصوصة . وان مجرد ذلك التعليم الأول يكفى فى التوقى من الضرر ، لان الضرر فى الحجاب عظيم ، وهو ضياع ما كسبه بالتعلم وحرمانهن الترقى فى مستقبل العمر ، والأمر فى ذلك واضح لا يحتاج الى دليل . ويكفي ان نرجع الى أنفسنا ونخطر ببالنا ما كنا عليه فى الخامسة عشرة من عمرنا فيتبين لنا اننا كنا أشبه بالأطفال لا نكاد نعلم شيئا من العالم ولا نعرف للحياة قيمة ولا نميز كمال التميز بين ما لنا وما علينا ولا تمتاز لدينا حقوقنا وواجباتنا وليس لنا عزيمة ثابتة فى مجاهدة أنفسنا ، وأن أكبر عامل له أثر فى تكميلنا

هو استمرار تعلمنا وتربية عقولنا ونفوسنا استمرارا لا انقطاع
معه ، وأن ذلك لم يتم لنا بقراءة الكتب بل بالمشاهدة والممارسة
والمخالطة وتجربة الناس والحوادث .

وفي الحقيقة أن تربية الانسان ليس لها سن معينة تنقطع
بعملها ، ولا حد معروف تنتهي عنده ، فهي لا تنال بحفظ مقدار من
العلوم والمعارف يجهد الانسان نفسه في اكتسابه سنين معدودة ثم
يقضى حياته بعد ذلك في الراحة .

التربية ليست ذلك الشيء البسيط الذي يفهمه عامة الناس
حيث يتصورون بانها عبارة عن تخزين كمية من المعارف المقررة في
برامج المدارس ، ثم امتحانها ، ثم شهادة ليس بعدها الا البطالة
والجمود . وانما التربية هي العمل المستمر الذي تتوسل به النفس
الى طلب الكمال من كل وجهه ، وهذا العمل لا بد منه في جميع
ادوار الحياة حيث يبتلى من يوم الولادة ولا ينتهي الا بالموت .

رأى زائد القاري أن يتبين صحة ما أسلفته من مضار الحجاب
على وجه لا يبقى للريب معه مجال فما عليه الا أن يقارن بين امرأة
من أهله تعلمت وبين أخرى من أهل القرى أو من المتجرات في المدن
لم يسبق لها تعليم ، فانه يجد الأولى تحسن القراءة والكتابة وتتكلم
بلغة وتلعب البيانو ، ولكنها جاهلة بأطوار الحياة بحيث لو استقلت
بنفسها لعجزت عن تدبير أمرها وتقويم حياتها . ويجد الثانية - مع
جهلها - قد أحرزت معارف كثيرة اكتسبتها من المعاملات والاختبار
وممارسة الأعمال والدعوى والحوادث التي مرت عليها ، وأن كل
ذلك قد أفادها اختيارا عظيما ، فاذا تعاملتا غلبت الثانية الأولى .

ومن هذا نرى أغلب نساء نصارى الشرق - وإن لم يتعلمن
في المدارس أكثر مما يتعلمه بعض بناتنا الآن - يعرفن لوازم الحياة
ولكنهن ما راين وسمعن باختلاطن بالرجال ، فقد ورد على عقولهن

معان وأفكار وصور وخواطر غير ما استفدته من الكتب ، فارتفعن .
بفضل هذا الاختلاط الى مرتبة أعلى من المرأة المسلمة المواطنة لهن
مع أنهن من جنس واحد واقلية واحد .

نرى في المرأة عندنا من الاستعداد الطبيعي ما يؤهلها لأن
تكون مساوية لغيرها في الأمم الأخرى ، لكنها اليوم في حالة انحطاط
شديد ، وليس لذلك سبب آخر غير كوننا جردناها من العقل
والشعور وعضمنا حقوقها المقررة لها وبخسناها قيمتها .

وقد جردنا حينا لحجاب النساء الى افساد صحتهن ، فالزمنان
القعود في المساكن ، وحرمانهن الهواء والشمس وسائر أنواع
الرياضة البدنية والعقلية .

ليس فينا من لا يعرف أن من النساء من لا يفارقن بيوتهن
ليلا أو نهارا ، بل يلازمها ، ولا يرين لهن شريكا في الوجود
الا جارية أو خادمة أو زائرة تجيئها لحظات من الزمن وتنصرف
عنها ، ولا يرين أزواجهن الا عند النوم لأنهم يقضون نهارهم في
اشغالهم ويقضرن الجزء العظيم من ليلهم عند جيرانهم أو في الأماكن
العمومية .

ليس فينا من لا يعرف أن نساء كثيرن فقدن صحتهن في هذه
المعيشة المنحطة وفي هذا السجن المؤبد ، وأنهن عشن عليلات الجسم
والروح ، ولم يذقن شيئا من لذة هذه الحياة الدنيا .

لذلك كان أغلب نساؤنا مصابا بالتشمع وفقر الدم ، ومتى
ولدت المرأة مرة تداعت بنيتها وذبل جسمها وظهرت عجوزا وهي في
ربعان شبابها . كل ذلك منشؤه خوف الرجال من الاخلال بالعفة !

على أن القول بأن الحجاب موجب العفة وعلمه مجلبة الفساد ،
قول لا يمكن الاستدلال عليه ، لأنه لم يقم أحد الى الآن باحصاء عام
يمكن أن تعرف به عدد وقائع الفحش بالضبط والعفة في البلاد

التي تعيش فيها النساء تحت الحجاب وفي البلاد الأخرى التي تتمتع فيها بحريتهن . ولو فرض وقوع مثل ذلك الاحصاء لما قام دليلا على الاثبات أو النفي في المسألة لأن ازدياد الفساد في البلاد ونقصه ما يرتبط بأمور كثيرة ليس الحجاب أهمها .

ومن المعروف أن لطرق معيشة الأمة ومزاجها واقليةها وآدابها وتربيتها دخلا عظيما في فساد أخلاقها وصلاحتها ، ولهذا نرى الفساد يختلف في بلاد أوربا بين بلد وآخر اختلافا ظاهرا ، ونرى أيضا مثل هذا الاختلاف بين البلاد التي لا تزال فيها عادة الحجاب باقية ، بل نرى اختلافا كبيرا بين زمن وزمن في بلد واحد . والتجارب ترشد الى أمر يمكن أخذه دليلا على أن الإطلاق أدنى بالنساء الى العفة من الحجاب . فمن المشاهد الذي لا جدال فيه أن نساء أمريكا هن أكثر نساء الأرض تمتعا بالحرية ، وهن أكثرهن اختلاطا ، حتى ان البنات في صباهن يتعلمن مع الصبيان في مدرسة واحدة ، فتتعد البنات بجانب الصبي لتلقي العلوم ، ومع هذا يقول المطلعون على أحوال أمريكا ان نساءها أحفظ للأعراض وأقوم أخلاقا من غيرهن ، وينسبون صلاحهن الى شدة الاختلاط بين الصنفين من الرجال والنساء في جميع أدوار الحياة . ومن المشاهد الذي لا نزاع فيه أيضا أن نساء العرب ونساء القرى المصرية مع اختلاطهن بالرجال على ما يشبه الاختلاط في أوروبا تقربنا أقل ميلا للفساد من مناتكنات المدن اللأئي . ثم يمنع الحجاب من مقنعة الشهوات والانغماس في المقاصد .

وهذا مما يحمل على الاعتقاد بأن المرأة التي تخالط الرجال تكون أبعد عن الأفكار السيئة من المرأة المحجوبة . والسبب في ذلك أن الأولى تعودت رؤية الرجال وسماع كلامهم ، فإذا رأت رجلا أيا كان لم يحرك منظره فيها شيئا من الشهوة ، بل لو عرض عليها شيء من هذا فانما يكون بعد مصاحبة طويلة وقضاء اوقات في خلوات كثيرة يحدث فيها ما قد يشعر كل واحد منهما بانجذاب

الى الآخر ، وهذا هو ما منعه الشريعة وبيننا امتناعه فيما سبق .
اما الثانية فمجرد وقوع نظرها على رجل يحدث في نفسها خاطر
اختلاف الصنف من غير شعور ولا تعمد ولا نية سيئة ، وانما هو
اثر منظر الرجل الأجنبي لانه قد وقر في نفسها ألا تراه ولا يراها ،
فمجرد النظر اليه كاف في اثارة هذا الخاطر .

وقد شاهدت مرارا كما شاهد غيرى هذا الاثر عينه في
الرجال ، فرأيت أن الرجل الذي لم يتعمد الاختلاط بالنساء ان لم
يغلبه سلطان التهذيب القوى لا يملك نفسه اذا جلس بينهن ،
فلا تشبع عينه من النظر اليهن ومن التأمل في محاسنهن ، وينسى
في ذلك كل أدب ولياقة . وربما طلب الوسائل للماستهن بيده أو
مماستهن بكتفه ، ويندفع الى أقوال وأعمال تشتمز منها نفوس
الحاضرين كأنه يظن - بل هو يظن بالفعل - أنه لا معنى لاجتماع
الرجل مع المرأة في مكان واحد الا أن يتمتع كل منهما بشهوته مع
الآخر ، بخلاف الرجل الذي اعتاد مخالطة النساء فانه لا يكاد
يجد في نفسه أثرا من رؤيتهن أكثر مما يجد عند رؤية الرجال ،
ولا يشعر بأدنى اضطراب في حواسه ولا في مشاعره . فمن ألزم
لوازم الحجاب أنه يهيئ الذهن في الرجال وفي النساء معا لتخيل
الشهوة بمجرد النظر أو سماع الصوت ، وهذا يوضح لنا السبب
فيما نشاهده كل يوم من أن المرأة اذا رأت رجلا في الطريق ،
أودعتها الضرورة لمخاطبته ، تتصنع في حركاتها وصوتها ما تظن
أنه يروق في عين الرجل - والرجل كذلك !

وقد شاهدت وشاهد كل انسان ما يخالف ذلك في بلاد
أوربا وفي الآستانة وفي القرى المصرية وبين الأعراب في البادية ،
حيث يمر الرجال والنساء بعضهم بجانب بعض وكثفا لكثف
ولا يلتفت أحدهم الى الآخر .

ولا ريب أن استلغات الذهن دائما الى احتداف الصنف من
أشد العوامل في اثارة الشهوة .

وبدعى أن المرأة التى تحافظ على شرفها وعفتها وتصون نفسها عما يوجب العار وهى مطلقة غير محجوبة لها من الفضل والاجر أضعاف ما يكون للمرأة المحجوبة ، فان عفة هذه قهرية • أما عفة الأخرى فهى اختيارية ، والفرق كبير بينهما • ولا أدرى كيف نفتخر بعفة نساءنا ونحن نعتقد أنهن مصونات بقوة الحراس واستحكام الأقال وارتفاع الجدران ؟

أقبل من مسجون دعواه أنه رجل طاهر ، لأنه لم يرتكب جريمة وهو فى الحبس ؟ فإذا كانت نساءنا محبوسات محجوبات فكيف يمكنهن أن يتمتعن بفضيلة العفة ؟ وما معنى أن يقال انهن عفيفات ؟ ان العفة هى خلق للنفس تمتنع به من مقارفة الشهوة مع القدرة عليها • ولعل التكليف الالهى انما يتعلق بما يقع تحت الاختبار لا بما يستكره عليه من الأعمال • فالعفة التى تكلف بها النساء يجب أن تكون من كسبهن ، وما يقع تحت اختيارهن ، لا أن يكن مستكرهات عليها ، والا فلا ثواب لهن فى مجرد الكف عن المنكر ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « من عشق فعف فكنم فمات فهو شهيد » •

والحقيقة أننا نعمل عمل من يعتقد أن النساء عندنا لسن أهلا للعفة ، أليس من الغريب ألا يوجد رجل فىنا يثق بامرأة أبدا مهما اختبارها ومهما عاشت معه ؟ أليس من العار أن نتصور أن أمهاتنا وبناتنا وزوجاتنا لا يعرفن صيانة أنفسهن ؟ أيليق أن نثق بهؤلاء العزيزات المحبوبات الطاهرات وأن نسيء الظن بهن الى هذا الحد •

انى أسأل كل انسان خالى الغرض : هل هذه المعاملة يليق أن يعامل بها انسان له من خاصة الانسان ما لنا ؟ فهو مثلنا له روح ووجدان وقلب وعقل وحواس ؟ وهل سوء الظن فى المرأة الى هذا الحد يتفق مع اعتبارنا لأنفسنا واعتبار المرأة لنفسها ؟

والعاقل يرى أن الاحتياط الذى يتخذه الرجال لصيانة النساء

عندنا مهما بلغ من العفة لا يفيد شيئا ان لم يصل الرجل الى امتلاك قلب امراته ، فان ملكه ملك كل شيء منها ، وان لم يملكه لم يملك منها شيئا ، ذلك لانه ليس في استطاعة رجل أن يراقب حركات امراته وسيرها في كل دقيقة تمر من الليل والنهار .

متى خرج أحدها من منزله أو سمح لامراته أن تخرج بسبب من الأسباب فعلام يتكل ان لم يكن على صيانتها وحفظها نفسها بنفسها ؟ ثم ماذا يفيد الرجل أن يملك جسم امراته وجده اذا غاب عنه قلبها ؟ يستطيع أن يمنعها أن تتصرف فيه وتبذله لاي شخص تريد ؟ فاذا رأت امرأة من الشباك رجلا فأعجبها ، ومالت اليه بقلبها ، وددت أن تواصله لحظة ، أفلا يعد هذا في الحقيقة من الزنا ؟ ألم يتمزق حجاب العفة في هذه اللحظة ؟ وهل بعد المسافة بينها وبين الرجل وعدم تمكنها من مواصلته يسمى عفة ؟ نعم ، ان الشرائع لا تعاقب ولا تقيم أحد على زنا العين والقلب ، لاز العقوبات والحدود لا سلطان لها على الخواطر والقلوب ، ولكن في نظر أهل الأدب والتقوى لا عبرة للبعد بين الأجساد اذا تواصلت الأرواح واجتمعت القلوب .

ومع ذلك ما الذي فعل الحجاب ؟ ألم نسمع بما يجري في داخل البيوت مما ينافي العفة ويخل بالشرف ؟ هل منع البرقع وقصر النساء وراء الحجاب والأقفال سريان الفساد الى ما وراء تلك الحجب ؟ كلا .

ربما يقول قائل ان ما نسمعه اليوم عن كثير من النساء أكثر مما كنا نسمعه سابقا . وان الاشاعات عن الفساد أشد انتشارا ، بل ربما كان الفساد في الواقع أوسع دائرة مما كان عليه قبل ثلاثين سنة مثلا ، ولا منوها لذلك الا رقة الحجاب ، فالحالة القديمة على ما فيها كانت حصون للأعراض وأحفظ لشرف المرأة من تلك الحالة التي طرأت على النساء - فنجيب على ذلك بأننا لا ننكر أن بعض الطبائع الفاسدة من الرجال والنساء معا وجدت سبيلا في

تخفيف الحجاب الى تعارف بعضها ببعض وإتيان ما يميل اليه من المنكر . بل نزيد عليه أنه لو استمر تخفيف الحجاب يتقدم بالسرعة التي سار بها الى الآن - والنفوس على ما هي عليه - لعمت البلوى وازداد الفساد انتشارا .

غير أن السبب في ذلك ليس هو تخفيف الحجاب ، بل هو راجع الى أمور كثيرة يجمعها الجهل وسوء التربية .

فسوء التربية هو علة الخفة والطيش . وهو الذي يسهل على امرأة ذات مكانة في بيتها وقومها أن تطيل نظرها الى شباب يمر في طريقها . وسوء التربية هو الذي يخفف عندها تبعة تحريك يدها لاجابة ذلك الشاب فيما يشير به اليها . وسوء التربية هو الذي يدفع بها الى الاتفاق معه على التلاقي والتواصل قبل أن يدور كلام بينه وبينها . وانما أركان عقد ذلك الاتفاق هي نظرات واشارات لا تفصح عن خلق من الأخلاق ، ولا عن ملكة من الملكات ، ولا عن درجة من العرفان ، ولا تدل على حالة نفسية ولا عقلية ولا جسمية يمكن الارتباط بها بين شخصين .

سوء التربية هو الذي يخرق كل حجاب ، ويفتح على المرأة من الفساد كل باب ، وهو الذي يخشى معه أن تسري العبدوى من امرأة الى امرأة ، ومن طبقة الى طبقة ، فقد نرى أن المحجبات مهملات بالغن في التحجب لا يستتكن أن يختلطن بنساء أخط منهن في الدرجة وأبعد عن التصون والعفة . فسيدة المنزل لا ترى بأسا في مخالطة زوجة خادمها ، بل قد تانس بالحديث معها وسماع ما تنقله اليها من غير مبالاة بما يلائم الحشمة وما لا يلائمها ، ولا تأنف التفتح في القول مع الدلالات وبائعات الأقمشة . بل قد يطوحها الجهل الى الاختلاط بنسوة لا تعرف شيئا عن حالهن ولا من أى مكان أتى ولا بأى خلق من الأخلاق تخلق . وأشنع من هذا كله واشد منه فعلا في افساد الأخلاق أن نساء من المومسات اللاتي

يحملن تذكرة رسمية يدفعون في الأفراح ويرقصن تحت أعين الأمهات
والبنات والكبار والصغار !

هنا ما يأتي من سوء التربية ، وهو من أشد العوامل في
تمزيق ستار الأدب ، وليست رقة الحجاب بشيء في جانب هذا
كله .

طرقت ديارنا حوادث ، وداخلنا ضرب من الاختلاط مع أمم
كثيرة من الغربيين ، ووجلت علائق بيننا وبينهم علمتنا أنهم أرقى
منا وأشد قوة . ومال ذلك بالجمهور الأغلب منا الى تقليدهم في
ظواهر عوائلهم خصوصا ان كان ذلك ارضاء لشهوة او اطلاقا من
قيد . فكان من ذلك أن كثيرا من أعلينا تساهلوا لزوجاتهم ومن
يتصل بهم من النساء ، وتسامحوهن لهن في الخروج الى المتنزهات
وحضور التيارات ونحو ذلك ، وقلدنهن في ذلك كثير ممن يليهن ،
وعرض من هذه الحالة بعض فساد في الأخلاق .

تلك حالة طرات للأسباب التي تقدمت ، وتبعتها من العواقب
ما بيناه . ولكن ليس من مصلحتنا ، ولا من المستطاع لنا ، محو
هذه الحالة والرجوع الى تغليظ الحجاب ، بل صار من منمنمات
حالتنا أن نحافظ عليها ، ونثقف تلك المضار التي نشأت عنها ،
وذلك هو ما نستطيعه .

أما أنه ليس من مصلحتنا أن نمحو هذه الحالة فلما قدمناه
في مضار الحجاب على الوجه المعروف . وأما أننا لا نستطيع ذلك
فلأن أسباب هذه الحالة مما فصلناه سابقا لا تزال موجودة ، وهي
تزداد بمرور الزمان بالرغم عنا ، ولأننا قد وجدنا من أنفسنا ميلا
الى حسن المعاملة في معاشرتنا النساء ، وزين في أنفسنا الكثير منا
حب المجاملة في مرضاتهن ، ونشأت لهن في قلوب الرجال منزلة
من الاعتبار لم تكن لهن من قبل ، وأحس النساء بذلك من رجالهن ،
فعددن ما وصلن اليه من الحرية والاطلاق حقا من الحقوق ،

وضروريا من ضرورات المعيشة ، فلا يسهل على الرجل أن يقضى على امرأته بما كان يقضى به من قبل أربعين سنة .

والذى يجب علينا هو معالجة المضار التى يظن أنها تنشأ عن تخفيف الحجاب . ولا توجد طريقة أنجع فى ذلك العلاج الا التربية التى تكون هى الحجاب المنيع والحصن الحصين بين المرأة وكل فساد يتوهم فى أية درجة وصلت إليها من الحرية والاطلاق .

سيقول معترض ان التربية والتعليم يصلحان أخلاق المرأة ، وأما الاطلاق فربما زاد فى فسادها ، فنجيب أن الاطلاق الذى نطالب به هو محدود يحظر الخلوة مع أجنبي ، وفى هذا الحظر ما يكفى لاتقاء المفاسد التى لا تتولد الا من الخلوة . أما الاطلاق فى نفسه فلا يمكن أن يكون ضارا أبدا متى كان مصحوبا بتربية صحيحة ، لأن التربية الصحيحة تكون أفرادا أقوياء بأنفسهم ، يعتمدون على أنفسهم ، ويسيرون بأنفسهم . فمن كملت تربيته استقل بنفسه ، واستغنى عن غيره . ومن نقصت تربيته احتاج الى الغير فى كل أمور . فالاستقلال فى النهى والاستقلال فى الرجال يرفع الأنفس من الدنيا ، ويبعد بها عن الخسائس ، لذلك يجب أن يكون هو الغاية التى نطلبها من تربية النساء .

حسن التربية واستقلال الارادة هما العاملان فى تقدم الرجال فى كل زمان ومكان ، وهما مطمح آمال كل أمة تسعى الى سعادتها ، وهما من أشرف الوسائل لبلاغها من الكمال ما أعلت له ، فكيف يمكن لعاقل أن يدعى أن لهذين العاملين أثرا آخر سيئا فى أنفس النساء ؟ ومن زعم أن التربية واستقلال الارادة مما يساعد على فساد الأخلاق فى المرأة فقد قصر نظره على بعض الاعتبارات التى لا يخلو عنها أمر من الأمور النافعة فى العالم ، فإن لكل نافع ضرا ، اذا أسىء استعماله .

هذا تعليم الرجال لا يخلو من العيوب الكثيرة ، وكثير منهم يستعمل علمه واختياره فيما يضر بنفسه أو بغيره . فهل ذلك يحمل أحدا من الناس على أن يقول أن من الصواب ألا يعلم الرجال شيئا خوف استعمال ما يتعلمون فيما يسوؤهم أو يسوء غيرهم ، وإن من الواجب أن يتركوا في الجهل تحت حجاب الغفلة ؟ لا أظن أن عاقلا يخطر هذا الخاطر بباله . فإذا كان اجماعنا قد انعقد على أن لا خير للرجال في الجهل والاستبعاد ، وأن لا سبيل لهم إلى بلوغ درجات الفضل إلا بالعلم وحرية الفكر ، فما لنا نختلف في هذه القضية نفسها إذا عرض ذكر المرأة ؟ وأى فرق بين الصنفين في الفطرة والخلقة ؟

والحق أنا غالينا في اعتبار صفة العفة في النساء وفي الحرص عليها وفي ابتداع الوسائل لحفظ ما ظهر منها وتفخيم صورتها حتى جعلنا كل شيء فداما ، وطلبنا أن يتضاءل ويضمحل كل خلق وكل ملكة دونها . نعم ، العفة أجمل شيء في المرأة وأبهى حلية تتحلى بها ، ولكن العفة لا تغنى شيئا عن بقية الصفات والملكات التي يجب أن تتحلى نفس المرأة بها من كمال العقل وحسن التدبير والخبرة بتربية الأولاد وحفظ نظام الحشمة في البيت والقيام على كل ما يستلزم اليأس من الشئون الخاصة بها لئلا يسبل نقول أن لهذه الصفات دخلا كبيرا في كمال العفة ؟ وفقط المرأة حصيلة من هذه الخصال لا ينقص في ضرره وفي الحط من شأنها عن فقدان العفة نفسها .

اتفقت الشرائع الإلهية والقوانين الوضعية على أن عقد الزواج وحده هو الذي يحلل الاجتماع بين الرجل والمرأة ، وإن اجتماعهما بدون ذلك العقد المقدس ممنوع ومقوت . ذلك أمر اقتضاه نظام العشيرة وكمال النفس الإنسانية ، فالعمل على ما يخالفه قبيح منموم بلا ريب . غير أن تلك الشرائع الإلهية والقوانين الوضعية قد حظرت أعمالا أخرى ، وأنزلتها من الشناعة منزلة لا تنحط عنها منزلة الخنا ، ووضعت عليها عقوبات أشد من العقوبة عليه ، لأنها

اعتبرت أن لتلك الأعمال من الضرر بالنظام ما هو أشد من ضرر الزنا . ولنضرب مثلاً بجريمة القتل ، فإنها أعظم من جريمة الزنا في نظر الدين والقانون . فلم لم تتخذ للوقاية منها من الوسائل الضارة ما اتخذناه للوقاية من الزنا ؟

انا معرضون في كل ساعة تمر من حياتنا الى مصائب لا تحصى ، وهذا لم يمنعنا من أن نتحرك ونسعى ونقتحم الأخطار في الأسفار لنحصل من رزق الله ما نحتاج اليه . انا نشعر بأنواع الجرائم ترتكب من حولنا فالقتل والنهب والنصب والتزوير والقذف وغيرها من الجرائم تزعج الساكن وتقلق المطمن ، ومع ذلك نحتمل مصائبها ، ونسلم لحكم القدر فيها ، ونجتهد في تطهير المجتمع منها بالوسائل المشروعة من التربية أو ايقاع العقوبة على مرتكب الجريمة . فلم لا يكون ارتكاب الفحش من المرأة جريمة من هذه الجرائم التي لا يخلو منها مجتمع انساني ؟ ولم نتخيل أنها أشنع وأفظح من سواها حتى اتخذنا لمنعها ما لم نتخذ له لمنع غيرها ؟

وعلى أى حال فليس من الجائز أن نأتى ما فيه ضرر محقق لننتقي به ضرراً وهمياً ، فوقوع الفحش من المرأة أمر محتمل الوقوع قد يكون وزيمياً لا يكون ، أما حجابها ومنعها من التمتع بقواها الفريزية فهو ضرر محقق لا حق بها حتمياً . ولا ليتها اقتصر عليها ولكنه يتعلها الى كل ما يقع تحت رعايتها .

يتوهم أحدنا أن امرأته ربما تميل الى غيره ان رفع الحجاب عنها ، فلذلك يزيج بها وراء الأبواب ، ويفلق عليها الأقفال ، ويظن بذلك أنه قد استراح من الوسائس ، وهو لا يدري ما ربما يأتيه من ... حيث لا يدري ، فلم يفد حرصه شيئاً في الحقيقة . ومع هذا فهو بعمله قد قتل نفساً حية ، وأفسد نفوساً كثيرة ممن تتولاهم زوجته في بيته في سبيل ما يظنه راحة لنفسه .

توهم كثير من سبقنا مثل ما توهمنا ، وحجبوا نساءهم كما
نحجب نساءنا ، بل فافقونا فى التفنن واتخاذ الطرق لاطمئنان أنفسهم
من ناحية زوجاتهم . واننى اذكر الآن أغرب طريقة كانت مستعملة
عند أعيان أوربا فى القرون الوسطى ، وهى ما كان يسمى عندهم
بنطاق العفة ، وهو نطاق من حديد يتصل به حفاظ ، ولذلك النطاق
قفل يكون مفتاحه فى جيب الرجل دائما . ولكن هذا لم يمنع
النساء من أن يمنحن عشاقهن مفتاحا مصطنعا ! ثم ما لبث هؤلاء
الأمم أن أدركوا خطأهم ، وعرفوا أن ضرر تلك الأوهام أكثر من
نفعها . ولما أخذت المعارف تنتشر بينهم شرعوا فى قياس أعمالهم
المعاشية بمقياس العقل السليم والعلم الصحيح الخالص من شائبة
الوهم ، وأدركوا أن سعادتهم لا تتم بما ينالون من ثمار ذلك الا اذا
شاركهم نساؤهم فى مساعيهم وعاونهم فى لم شعثهم وتكميل
نقصهم ، فأعلموهم بالتربية والعلم الى ما أملوا منهم ، فافتككن من
أسرهن ، وتمتعن بحريتهن ، وسرن مع رجالهن يعاونهم فى الحياة ،
ويمددهن بالرأى فى كل أمر . ولست مبالغا ان قلت ان ما أقامه
التملن الحديث من البناء الشامخ وما وضعه من الأصول الثابتة
انما شيد على حجر أساسى واحد هو المرأة .

لم يكن ما استفادته الغربيون من تربية نساءهم والتساهل
لهن فى مخالطتهم مقصورا على المزايا التى أشرنا اليها ، بل كان
لهم مع ذلك فوائد جمة فى تدبير المعيشة وتيسير طرق الاقتصاد .
تدخل بيت الغربى من أهل الطبقة الوسطى فتجده أتم نظاما
وأكمل ترتيبا وأجمل أثانا من بيت الشرقى من أهل طبقته ، ومع
ذلك تجد نفقة الغربى أقل من نفقة الشرقى بكثير .

انظر الى الواحد منا تجد مسكنه لابد أن يكون الى قسمين :
قسم للرجال وآخر للنساء . فان أراد أن يبنى بيتا فعليه أن يهين
ما يكفى لبناء بيتين فى الحقيقة ، واذا استأجر بيتا فهو انما يستأجر
فى الواقع بيتين ، ويتبع ذلك ما يلزم لكل منهما من الأثاث

والفراش • ولا بد له من فريقين من الخدم : فريق يخدم الرجال
فى القسم المختص به ، والآخر يختص بخدمة النساء داخل البيت •
ثم لابد له من عربية للنساء وعربة للرجال ، لأنه ليس من الجائز
فى عرفنا أن يركب الرجل مع زوجته أو مع والدته فى عربية واحدة •
وهو مضطر لأن يزيد فى النفقة للطعام وما يتبعه ، لأنه إذا أتى
ضيف واحد - رجلاً كان أو امرأة - وجب تحضير مائدتين بدل
واحدة كانت تكفى • وهكذا ترى نفقات ضائعة ، وثمرات كسب
مستهلكة ، ولا سبب لها الا تشديد الحجاب على النساء •

هل يظن المصريون أن رجال أوربا ، مع أنهم بلغوا من كمال
العقل والشعور مبلغاً مكنهم من اكتشاف قوة البخار والكهرباء
واستخدامها على ما نشاهد بأعيننا ، وأن تلك النفوس التى تخاطر
كل يوم بحياتها فى طلب العلم والمعالى وتفضل الشرف على لذة
الحياة - هل يظنون أن تلك العقول وتلك النفوس التى نعجب
بآثارها يمكن أن يغيب عنها معرفة الوسائل لصيانة المرأة وحفظ
عفتها ؟ هل يظنون أن أولئك القوم يتركون الحجاب بعد تمكنه
عندهم لو رأوا خيراً فيه ؟ - كلا • وإنما الافراط فى الحجاب من
الوسائل التى تبادر عقول السذج ، وتركن إليها نفوسهم ، ولكنها
يمجها كل عقل مهذب وكل شعور رقيق •

متى تهذب العقل ورق الشعور أدرك الرجل أن المرأة انسان
من نوعه لها ما له وعليها ما عليه ، وأن لا حق لأحدهما على الآخر
بعد توفية ما فرضته الشريعة على كل منهما لصاحبه الا ما يعطيه
كل من نفسه بمحض ارادته وحسن اختياره •

متى تهذب العقل ورق الشعور فى الرجل عرف أن حجاب
المرأة اعلام لشخصها ، فلا تسمح له ذمته بعد ذلك أن يرتكب هذه
الجريمة توسلاً الى ما يظنه راحة بال واطمئنان قلب •

متى تهذب العقل ورق الشعور فى الزوج وجد من نفسه أن
لا سبيل الى اطمئنان قلبه فى عشرة امرأة جاهلة ، مهما كان الحائل
بينها وبين الرجال .

متى تهذب العقل ورق الشعور فى الرجل أدرك أنى الذى
تشتاق اليه نفسه هو حب يصل بينه وبين انسان مثله بحسن
اختيار وسلامة ذوق لا بمجرد نزعات الهوى ونزوات الشهوة ،
فيسمى جهله فيما يقويه ويشد عراه ويبذل ما وفى وسعه للمحافظة
عليه .

متى تهذب العقل ورق الشعور فى الرجل والمرأة لا تقتنع
نفوسهما بالاختلاط الجسدانى وحده ، بل يصير أعظم ههما طلب
الاكتلاف العقلى والوحدة الروحية .

ان طبيعة العصر الذى نحن فيه منافرة للاستبداد مصادية
للاستعباد مiale الى سوق القوى الانسانية فى طريق واحدة وغاية
واحدة . فهذا الطائف الرحمانى الذى طاف على نفوس البشر فنبه
منها ما كان غافلا لابد أن ينال منه النساء نصيبهن . فمن الواجب
علينا أن نمد اليهن يد المساعدة ونعمل يقول النبى صلى الله عليه
وسلم : « اتقوا الله فى الضعيفين : المرأة واليتيم » ، ولا شىء أدخل
فى باب التقوى من تهذيب العقل وتكميل النفس واعلادها بالتعليم
والتربية الى مداومة الرذائل ومقاومة الشهوات ، ولا من حسن
المعاملة واللفظ فى المعاشرة . فعلينا أن نجعل الصلة بيننا وبينهن
صلة محبة ورحمة لا صلة اكراه وقسوة . هذا ما تفرضه علينا
الانسانية ، وتطالبنا به الشريعة ، وهو مع ذلك فريضة وطنية
يجب علينا أداؤها حتى تكون جميع أعضاء المجتمع عندنا حية
عاملة قائمة بوظائفها .

وقبل أن اختتم الكلام فى هذا الباب أرى من الواجب على أن
أنبه القارئ الى أنى لا أقصد رفع الحجاب الآن دفعة واحدة والنساء

على ما هن عليه اليوم . فان هذا الانقلاب ربما ينشأ عنه مفسد
جدة لا يأتى معها الوصول الى الغرض المطلوب ، كما هو الشأن فى
كل انقلاب فجائى ، وانما الذى أميل اليه هو اعداد نفوس البنات
فى زمن الصبا الى هذا التغيير ، فيعودون بالتخريج الى الاستقلال ،
ويودع فيهن الاعتقاد بأن العفة ملكة فى النفس لا ثوب يختفى دونه
الجسم . ثم يعودن معاملة الرجال من أقارب وأجانب مع المحافظة
على الحدود الشرعية وأصول الأدب تحت ملاحظة أوليائهن . عند
ذلك يسهل عليهن الاستمرار فى معاملة الرجال بدون أدنى خطر
يترتب على ذلك الا فى أحوال مستثناة لا تخلو منها محجة
ولا بادية !



المرأة والأمة

كل من تعلم من المصريين وساعده حسن الحظ على أن يستعرف
أحوال أمته وحاجاتها ويحيط بها يعلم أن الأمة المصرية دخلت اليوم
في دور مهم ، بل في أهم دور من تاريخها .

انى لا أجد فى ماضيها عصرا انتشرت فيه المعارف وظهر فيه
الشعور بالروابط الوطنية وانبث الأمن والنظام فى أنحاء البلاد ،
وتنهيات الأسباب للتقدم مثل العصر الذى نعيش فيه الآن . ولكنها
من جهة أخرى لم يمر عليها زمن صارت فيه حياتها معرضة للخطر
مثل ما هى فى هذا الزمان ، فان تمدن الأمم الغربية يتقدم بسرعة
البخيل والكهر بلا حتى يغلب من منبغ إلى جميع الأنحاء الميسكونية ،
فلا يكاد يوجد منها شبر الا وطنه يقدمه . وكلما دخل فى مكان
اقتوى على متابع الثروة فيه من زراعة وصناعة وتجارة ولم يدع
وسيلة من الوسائل الا استعملها فيما يعود عليه بالمنفعة ، وان أضر
بجميع من حوله من سكان البقاع الأصليين ، فانه انما يسمى الى
السعادة فى هذه الحياة الدنيا يطلبها انى وجدها وبأى طريقة يرى
النجاح فيها . وهو فى الغالب يستعمل قوة عقله ، فاذا دعت الحال
الى العنف واستعمال القوة لجأ إليهما . فهو لا يطلب الفخار والمجد
فيما يمتلك او يستعمر ، لانه يجد ذلك متوافرا له فى أعماله العقلية
واختراعاته العلمية ، وانما الذى يحمل الانكليزى على أن يسكن
الهند ، والفرنسى الجزائر ، والرومى الصين ، والألماني زنجبار ،

هو حب المنفعة والرغبة في تحصيل الثروة من بلاد تحتوى على كنوز لا يعرف أهلها قيمتها وطرق الانتفاع بها !

فإن صادفوا أمة متوحشة - مهما كان بأسها - أبادوا أهلها وأهلكوهم أو أجلوهم عن أرضهم ، كما حصل في أمريكا وأستراليا ، وكما هو حاصل الآن في أفريقية حيث لا يرى أثر لأهل البقاع التي احتلها الأوربي ، لأنهم خرجوا منها طوعا أو كرها . وإن صادفوا أمة كآمتنا فيها نوع من المدنية من قبل ، ولها ماض ودين وشرائع وأخلاق وعوائد وشيء من النظمات الابتدائية ، خالطوا أهلها وتعاملوا معهم وعاشروهم بالمعروف . لكن لا يمضى زمن طويل حتى ترى هؤلاء القادمين قد وضعوا يدهم على أهم أسباب الثروة ، لأنهم أكثر مالا وعقلا وعرفانا وقوة ، فيتقدمون كل يوم ، وكلما تقدموا في البلاد تأخر ساكنوها . هذا ما سماه داروين قانون التزاحم في الحياة : فطرة الله التي فطر عليها جميع الأنواع وأودعها إياها لتعدها إلى الرقي في درجات الكمال . فما ضعف منها عند التزاحم عن مغالبة منازعه اضمحل ونبذ الوجود إلى خفاء العدم ، وما قوى عند التغالب أظفره الله بالنصر المبين ، فيرجع من ساحات هذا القتال الدائم مبرهنا بظفره على أنه أفضل بنى نوعه وأكرمهم ، فيعيش ويكثر ويحيا سلاسا وينمو ويظهر فيه كماله ويختلف هذا الكائنات

فلا سبيل للنجاح من الإضمحلال والقبض إلا طريق واحدة لا منلوحة عنها ، وهي أن تستعد الأمة لهذا القتال وتأخذ له أهبتها وتستجمع من القوة ما يساوى القوة التي تهاجمها من أى نوع كانت ، خصوصا تلك القوة المعنوية ، وهي قوة العقل والعلم التي هي أساس كل قوة سواها .

فاذا تعلمت الأمة كما يتعلم مزاحموها ، وسلكت في التربية مسالكهم ، وأخذت في الأعمال مأخذهم ، وتدرعت للكفاح بمثل ما تدرعوا به ، أمكنها أن تعيش بجانبهم ، بل تيسر لها أن تسابقهم

فتسبقهم ، فتستأثر بالخير دونهم ، لأن البلاد بلادها ، وأرضها أبر
بها منها بالغريب عنها ، وأبنائها أقدر على المعيشة فيها ، وهم
السواد الأعظم ، فكيف اذا ظفروا من أنفسهم بتلك الحال الشريفة
لا يفلحون .

وهذه الطريق - طريق النجاة - كما قلعت مفتوحا أمامنا
ولا يوجد عائق يعوقنا عن السير فيها الا ما يكون من أنفسنا .

فان كان للمصريين هم وصدق عزيمة في طلب سعادتهم
والمحافظة على بقائهم والسعى الى خلاصهم ونجاتهم من التهلكة ،
فعليهم ان يسلكوا تلك الطريق ، ويخلصوا عنهم كل عادة سيئة ،
وينزعوا من أنفسهم كل خليقة ممقوتة تعطل مسيرهم ، وليعتمدوا
على أنفسهم في اصلاح أنفسهم ، ولا يضيعوا أوقاتهم في أمانى
باطلة يلتمسون تحقيقها من حكومتهم ، فان حكومتهم لا تستطيع
من العمل لهم الا قليلا . أما هم فانهم يستطيعون ان يأتوا في
اصلاح شئونهم بالجم الكثير . ماذا يفيدهم ان يقولوا كل يوم ان
الحكومة لم تقم بما يجب عليها ؟ اهذا يمنعنا ان نفعل ما يجب
علينا لأنفسنا ؟

نحن اليسترون ممتنعون بعقل وخيرية لا اظن ان مصر رأت
ما يماثلها في أى زمن من أزمانها ، وهنا الأمران اللذان تحتاج
اليهما الأمة أشد الاحتياج ، ولا يتيسر بلونهما نجاح في عمل من
الأعمال العظيمة التي يقوم بها اصلاحها . فما علينا الا ان ننتهز
فرصة ما وصلنا اليه ، ونحرث أرضنا ونسقى غراسها ، وننتظر
ما تأتى به من الثمرات ، فاذا نضجت اقتطفناها . وكما ان الزارع
يجب عليه قبل ان يلقى البذور فى الأرض ان يهتم بمعرفة طبيعتها
وما تحتاج اليه من الأعمال لتحضيرها وتهيئتها ، حتى لا يضيع ماله
وتعبه ، كذلك يجب علينا ان نبحث فى أسباب تاخرنا ، فاذا

عرفناها عمدنا الى ازالتها وصنا انفسنا من التخطط على غيرى هدى ،
وارحنا انفسنا من التجارب العقيمة .

وقبل الكلام فيما نريد البحث فيه نثبت هنا أمرا لاحظته كل
من له الملم بأحوال الشرق : وهو أن تأخر المسلمين عام فيه اين
كانوا ، فالسبب يجب أن يكون عاما أيضا .

أما اختلاف الشعوب والأقاليم فليس له تأثير كبير فى انحطاط
المسلمين ، اذ لو كان له اثر لوجد اختلاف بين التركى والمصرى
والهندى والفارسى والبشتاقى والصينى من حيث العمران والمدنية ،
ولكننا لا نرى اختلافا بينهم من هذه الجهة ، وانما الاختلاف محصور
فى بعض الصفات النفسانية وبعض العوائد . ذلك هو كل ما فعله
اختلاف الشعوب والأقاليم . فالتركى مثلا نظيف صادق شجاع ،
والمصرى على ضد ذلك ، الا أنك تراهما برغم هذا الاختلاف متفقين
فى الجهل والكسل والانحطاط . اذن لابد أن يكون بينهما امر جامع
وعلة مشتركة هى السبب الذى أوقعهما معا فى حالة واحدة .

ولما لم يكن هناك أمر يشمل المسلمين جميعا الا الدين ذهب
جمهور الأوربيين وتبعهم قسم عظيم من نخبة المسلمين ، الى أن
الدين هو السبب الوحيد فى انحطاط المسلمين وتأخرهم عن غيرهم ،
حتى الذين يشبهونهم فى الإقليم وبسبب كونهم فى البلد الواحد .
ولم يقصد أحد منهم - خصوصا أفاضل المسلمين المشتغلين بأحوال
الأمم الإسلامية - أن يتهم الدين الإسلامى الحقيقى بأنه السبب
فى انحطاط المسلمين ، فان كل من عرف هذا الدين من الأجانب ،
فضلا عن أبنائه المنتسبين اليه ، يجل قدره ويحترمه ويعترف أن
آثاره الماضية فى الأمم التى انتشر بينها برهنت على أنه وسيلة من
أفضل الوسائل وعامل من أقوى العوامل التى تسوق الانسان فى
طرق الترقى والتقدم الى غايات السعادة . ولكنهم يرون أن
ما يزعمه المسلمون اليوم دينا ، وتسميه عاماتهم بل أغلب علمائهم

يدين الاسلام ، قد اشتمل على أمور كثيرة من عقائده وعوائده وآداب
موهومة لا علاقة لها بالدين الحقيقي الطاهر ، وانما هي بدع
ومحدثات ألصقت به : فهذا الخليط الذي سماه الناس ديننا
واعتبروه اسلاما هو المانع من الترقى .

وليس في امكان أحد أن ينكر أن الدين الاسلامي قد تحول
اليوم عن أصوله الأولى ، وأن العلماء والفقهاء - الا قليلا ممن أنار
الله قلوبهم - قد لعبوا به كما شامت أهواؤهم حتى صيروه سخرية
وهزاوا ، وحقت عليهم كلمة الكتاب :

« اتخلوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا »

ولكني أعتقد أن هذا الانحطاط الذي طرأ على الدين ليس سببا
لما عليه المسلمون الآن ، وانما هو نتيجة لآمر : هل هو الجهل
الفاشي في المسلمين عامة رجالا ونساء .

كان النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه وأصحابه كلهم
يخدمون الدين ويشغلون بالدنيا في آن واحد . وصرحت السنة
كما أجمعت عليه الإثمة بأن لا قوام للدين الا بسلطة تحفظه . فلم
يمض الا قرن واحد من عهد ظهور الاسلام حتى صار علم المسلمين
يخفق على أهم أقسام العالم . ولم يكن الغرض من هذه الفتوحات
العجيبة إكراه الناس على الأخذ بهذا الدين . وانما كانوا يفتحون
البلاد دفاعا عن الحوز وتوسيعا لنطاق الملك والسلطة والانتفاع
بالصناعة والتجارة ، وهو المقصد الذي يعمل له الأوروبيون في بلاد
الشرق الآن .

ثم لم يمض على ظهور الاسلام جيلان حتى أضاء الكون بنور
العلوم التي نشرها المسلمون في كل أرض احتلوها وبلد أقاموا
به ، فلم يتركوا فرعا من العلوم ولا فنا من الفنون الا تعلموه وألفوا
فيه وزادوا عليه ، حتى العرب - تلك الأمة الأمية التي ربما صح

فيها قول ابن خلدون انها لا تصلح للمدنية أبدا - اندفعت بقوة ذلك التيار وعامل تلك النهضة الى منافسة مواطنيهم في خدمة العلم . وكانت هذه الحركة عامة في كل ما يجول فيه الفكر ويمتد اليه النظر وتتناوله مدارك البشر : هنا يشتغل بعلوم الكلام ، وآخر بالعلوم الطبيعية ، وثالث بالفلك والحساب ، ورابع بالتاريخ والجغرافيا ، وخامس بالفلسفة والأخلاق . ولم يهملوا الصناعة والتجارة فبنوا وشيدوا ، وامتلات سفنهم بالبضائع تجرى في البحار حول الأرض . واستمر هذا الحال على ضرب من التفاوت بحسب الأزمان الى أن رزى المسلمون بوقائع التتار في الشرق وانقراض الخلافة منه . وزالت دولة العرب من الأندلس ، وانتقلت العلوم الاسلامية الى أوروبا ، فرجع المسلمون الى حالة الجاهلية الأولى .

ومن ذلك الحين انطفأ مصباح العلم من الشرق بأجنحه واقتصر علماء الاسلام على النظر في شيء من علوم الكلام وبعض شيء من قواعد اللغة العربية ، وانصرفوا عن كل شيء سواها .

ولما ساد الجهل على عقولهم ، وتراكمت ظلماته في أذهانهم ، لم يعد في استطاعتهم أن يفهموا حقيقة الدين ، وشعروا أن ضعفهم لا يسمح لهم بأن يصنعوا اليه بعقولهم ، فأنزلوه من مكانه الرفيع ، ووضعوه مع جهلهم في مستوى واحد . ثم أخذوا يتصرفون فيه تصرف الغبي الأحمق ، والجاهل كالطفل يفتر بنفسه ويعجب بمعارفه ويؤذي نفسه والناس معه .

انظر الى الجاهل تجده دائما يختار من فكرين أقلهما صوابا ، ومن طريقين أصعبهما ، ومن عشرين أضرهما ، ذلك لأن الحق سواء كان فضيلة أو مصلحة يلتبس بالباطل . ويخفى على الناظر ، فلا يراه بعيد النظر نافذ البصيرة في مصائر الأمور وعواقبها . ثم

هو يحتاج فى الوصول اليه الى غناء يفر منه الجاهل الكسول
وفيه حرمان من لذة حالية فى سبيل منفعة مستقبلية .

ومن رأى علمائنا اليوم أن الاشتغال بشئون العالم والعلوم
العقلية والمصالح الدنيوية شيء لا يعينهم ، وصار منتهى علمهم أن
يعرفوا فى اعراب البسمة ما يزيد من غير مبالغة على ألف وتبج ،
وان سألتهم عن شيء من الأشياء المتداولة فى أيديهم صنع أو عن
حالة الأمة التى هم منها أو أمة أخرى تجاورهم أو الأمة التى احتلت
بلادهم أين موقعها الجغرافى ، وما منزلتها من القوة والضعف ،
بل لو سألت الواحد منهم عن وظيفة عضو من أعضائه أو مكانه من
بدنه - هزوا أكتافهم ازدراء بالسائل والمسألة احتقارا لهما . وان
تكلمت معهم فى نظام حكومتهم الداخلى وقوانينها وحالتها السياسية
والاقتصادية وجدتهم لا يلرون منها شيئا . وسواء عاشوا فى العز
أو فى الذل فهم على كل حال عاثشون ، وبما ينحطون اليه راضون ،
ويرون أن ليس للانسان أن يعمل لمصلحة نفسه وأن يختار لها
أمرا ، ويزعمون أنهم وكلوا جميع أمورهم الى ما يجرى به القضاء .
مع أنك تراهم أشد الناس احتيالا فى طلب الرزق من غير وجهه ،
وأحرصهم على حفظ ما يجمعون من الحطام ونيل ما يتوهمونه شرف
ورفعة ، ولذلك ضرب المثل بتحاسنهم فيما بينهم . فهم فى الحقيقة
يريدون التخلص من مشقة العمل ، وانما يحتجون بالقدر تفضيلا
للراحة واقناعا للسذج بأنهم فى تقصيرهم فى أداء ما فرضته عليهم
الشريعة مقهورون بقوة القضاء .

ظن هؤلاء المساكين أنهم متى عرفوا كيف تستقيم العمارات
وكيف تعذب الأكماع بالاعراب والصرف عرفوا مافى الدين والدنيا
والبعد بينهم وبين الدين الحقيقى عظيم .

قال الأستاذ الشيخ محمد عنبه فى بيان ما جاء به الأئمة

كلاما نأخذ منه ما يناسب المقام هنا لأنه أحسن ما كتب في هذا الزمان لتنبية أفكار المسلمين :

« طالب الاسلام بالعمل كل قادر عليه ، وقرر أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره • ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) • و (أن ليس للانسان الا ما سعى) وأباح لكل واحد أن يتناول من الطيبات ما شاء أكلا شربا ولباسا وزينة ، ولم يحظر عليه الا ما كان ضارا لنفسه ، أو بمن يخل في ولايته ، أو ما تعدى ضرره الى غيره • وحدد له في ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة • فكفل الاستقلال لكل شخص في عمله ، واتسع المجال لتسابق الهمم في السعي حتى لم يمد لها عقبة تتعثر بها الا حقا محترما تصطدم به •

« أنعى الاسلام على التقليد وحمل عليه حملة لم يرد لها عنه القدر ، فبددت فيآلقه المتغلبة على النفوس • واقتلعت أصوله الراسخة في الممارك ، ونسفت ما كان له من دعائم وأركان في عقائد الأمم • وصاح بالعقل صيحة أزعجت من سباته • وهبت به من نومة طال عليه الضيب فيها ، كلما نفذ اليه شعاع من نور الحق خلصت اليه هيمنة من سدنة هياكل الوهم : ثم فان الليل حالك والطريق وعرة والغاية بعيدة والراحلة كليلة والأزواد قليلة •

« علا صوت الاسلام على وساوس الطعام ، وجهر بأن الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ، ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والأعلام : أعلام الكون ودلائل الحوادث • وانما المعلمون منبهون ومرشدون والى طرق البحث هادون •

« صرح في وصف اهل الحق بأنهم « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » • فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين القائلين لياخذوا بما عرفوا حسنه ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته

ونفعه . ومال على الرؤساء فانزلهم من مستوى كانوا فيه يأمرون وينهون ووضعهم تحت أنظار مرؤوسيهم يخبرونهم كما يشاءون ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون .

« صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه . الآباء وما توارثه عنهم الأبناء وسجل الحق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ، ونبه على أن السبق في الزمان ليس آية من آيات العرفان ، ولا مسميا لعقول على عقول ولا لأذهان على أذهان . وإنما السابق واللاحق في التمييز والفطرة سيان . بل اللاحق من علم الأحوال الماضية واستعملاده للنظر فيها والانتفاع بما وصل اليه من آثارها في الكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه . وقد يكون من تلك الآثار التي ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لأعمال من سبقهم وطغيان الشر الذي وصل اليهم بما اقترفه سلفهم (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) .»

وان أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب ، ورحمته التي وسعت كل شيء . لن تضيق عن دائب .

« عاب أرباب الأديان في اقتفائهم أثر آبائهم ووقوفهم عند ما اختطته لهم سير أسلافهم وقولهم (بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) . (انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون) ، (١) .»

ومما يستحق أن نفرح له هو أن نفرا من علماء عصرنا في مصر وفي غيرها من بلاد الاسلام شرقا وغربا يرون ما نرى ، ويقولون ما نقول ، ويعترفون بأن العلوم التي تقرأ الآن في الأزهر وفي غيره

(١) رسالة التوحيد ، صفحة ١٠٠ و ١٠١ و ١٠٢ .

لا تفيد ان لم تؤسس على الحقائق العلمية التى تهيم العقول
لقبولها والانتفاع بها .

وفى الحقيقة أن علوم التوحيد والفقه لا يمكن الانتفاع بها
إذا لم يسبقها الإلمام بالمعارف والمبادئ العلمية . أليس التوحيد
هو خاتمة العلوم كلها وخلاصة مجموعها ؟ أليس الفقه علم شريعة
كل نفس فى ارتباطها بخلقها وفى معاملتها مع بقية البشر ، وكلاهما
يحتاج الى معرفة علم النفس وتشريح الجسم ووظائفه والتاريخ
والرياضة والعلوم الطبيعية وغيرها مما تسمو به الأفكار ويرتقى به
العقل ؟ أليس فى الحقيقة واحدا يشبه شجرة ذات فروع وأفنان
تتصل بأصل واحد وتتغذى من جذر واحد وتخدم حياة واحدة
وتنتج ثمرة هى معرفة حقيقة كل شىء فى الوجود ؟

وما علينا الا أن نصفى لمقال هؤلاء العلماء الأفاضل الذين هم
أدرى منا بحاجات الدين ، ولا يخفى عليهم شىء من حاجات الدنيا ،
وأن نعزدهم فى مشروعاتهم الصالحة ليستيقظ الدين من نومه
الطويلة ، ويذل العقبات ، ويتغلب على المصاعب التى أقامها أهله
فى طريقه .

ولا حاجة بنا الى التطويل فى شرح أمر صار معلوما عند
الكل ، وهو انحطاط الدين اليوم فى جميع مظاهره حتى فى
العبادات . وانما أردنا أن نبين أن انحطاط الذين تابع لانحطاط
العقول ، وأن العلة الأولى التى هى مصدر غيرها من العلل التى حالت
بيننا وبين الترقى هى احوال التربية فى الرجال وفى النساء معا .

فإن استمر ذلك السبب لم يصلح للأمة حال بل يستمر كل
أمر على حاله ، والدين أيضا . وإن زال ذلك السبب صلح حال
الأمة فى جميع مظاهر حياتها العقلية والأدبية ، وصلح معها الدين
أيضا .

أما أن تربية الرجال تصلح شأن الأمة وتقوم اعوجاجها فهذا مما صار معروفا عند كل واحد ومسلما به عند الجميع ، وأما وجوب تربية المرأة أيضا فلا يزال محتاجا الى البيان :

المرأة لا تكون خلقا كاملا الا اذا تمت تربيتها الجسدية والعقلية . أما تربيتها الجسدية فلأنها لازمة في استكمال صحتها وحفظ جمالها ، فيجب أن يربي الرجال على تمرين الجسم بالحركة والرياضة ، لأن الجسم الضعيف لا يسكنه الا عقل ضعيف ، ولأن ما يكثر عروضه للنساء من الاضطرابات العصبية والمخية إنما هو ناشئ عن عدم انتظام وظائف أعضاء الجسم .

فسلامة العقل في جميع مظاهره تابعة لسلامة الجسم . وهذا هو السر في تقسم الجنس الانكليزي السكسوني على غيره .

ويرى القراء في الكتاب الذي ترجمه صديقي أحمد فتحى (بك) زغلول من اللغة الفرنسية الى العربية (١) كيف أن نشاطهم وجراءتهم واقلامهم وتبصرهم وفطنتهم وجميع الصفات التي تعترف كل الأمم بامتيازهم فيها عن سواهم هي نتيجة لعب الكرة والسباحة وركوب الخيل ، والحرية والاستقلال في الأعمال مما له دخل كبير في تربية أطفالهم ذكورا وإناثا . ولهذا ابتدأ الفرنسيون وغيرهم في تقليدهم، لأنهم أدركوا أن تربية العقل التي اعتنوا بها لا تشر ثمرتها الا اذا صحبتها تربية الجسم وأن موازنة العقل لا تتم الا بموازنة وظائف الجسم . واذا تذكر القارىء ما سبق بيانه من أن الولد يرث من أبويه خصوصا من أمه الحالة الجسدية والعقلية التي تكون عليها مدة حملها ، يعلم مقدار ما تستفيد المرأة والرجل والهيئة الاجتماعية كلها من الاعتناء بصحة المرأة .

(١) سر تقدم الانكليز السكسونيين .

وأما تربيته العقلية فلأنها بدونها تكون المرأة فاقدة لقيمتها كما هي حالتها الآن عندنا نعم ، أنها تلد ويحفظ بها النوع الانساني ، لكنها في ذلك إنما تؤدي وظيفة كل أنثى من سائر أنواع الحيوانات ، وهي تمتاز في عملها هذا عن نحو حرة ولود .

وفي الحق أننا ضيقنا دائرة وظيفة المرأة وخصصناها بالنتاج ولم نطلب منها شيئاً غير ذلك . وسببه أننا توهمنا أن المرأة لا تصلح لعمل آخر ، وأن الرجال غير محتاجين الى النساء في القيام بشئون الحياة الخاصة والعامة ، وغاب عنا أن الرجل إنما يكون في كبره كما هيأته والدته في صغره .

فهذا الارتباط التام بين الرجل وأمه هو الأمر المهم الذي أريد أن يفهمه الرجال . وهو ثمرة كل ما وضعته في هذا الكتاب .

إنني أكرر ما قلته من أنه يستحل تحصيل رجال ناجحين أن لم يكن لهم أمهات قادرات على أن يهيئهم للنجاح ، فتلك هي الوظيفة السامية التي عهد التمدن بها الى المرأة في عصرنا هذا ، وهي تقوم بأعبائها الثقيلة في كل البلاد المتمدنة حيث نراها تلد الأطفال ثم تصوغهم رجالاً .

وبهي أن العمل الأول ، وهو الولادة ، هو عمل بسيط مادي تشترك فيه المرأة مع الحيوانات فلا يحتاج الا الى بنية سليمة . أما العمل الثاني وهو التربية فهو عمل عقلي امتاز به النوع الثاني ، وهو محتاج في تأديته الى تربية واسعة واختبار عظيم ومعارف مختلفة .

والأمر الذي يلزم أن تلتفت اليه كل أمة لا تغفل عن مصالحها الحقيقية هو وجود النظام في العائلات التي يتكون منها جسم الأمة ، لأن العائلة هي أساس الأمة . ولما كانت المرأة هي أساس العائلة كان تقدمها وتأخرها في المرتبة العقلية أول مؤثر في تقدم الأمة وتأخرها .

المرأة ميزان العائلة ، فان كانت منحلة احتقرها زوجها وأهلها وأولادها وعاشوا جميعا منحلين لا يرتبط بعضهم ببعض ولا يعرفون نظاما ولا ترتيبا فى معيشتهم ففسد آدابهم وعوائلهم ، وان كانت على جانب من العقل والأدب هذبت جميع العائلة ، واحترمها أفرادها، واحترموا أنفسهم ، وعاش الجميع فى نظام تام تعنت لواء محبتها متضامنين أقوياء باتحادهم . وهذه الصفات التى تشاهد فى الأمة ، اذ كل منا يسلك فى أمته مسلكه فى عائلته . ومن المحال أن يكون للانسان من الصفات والأخلاق فى أمته ما ليس له نموذج فى منزله ، وأن يعامل مواطنيه بأخلاق غير التى يعامل بها أفراد عائلته ، وان كان حسن الأخلاق فى عائلته كان كذلك فى أمته ، وان كان سيئ الأخلاق فى عائلته ساءت أخلاقه فى أمته أيضا . ومن هذا يتبين مقدار عمل المرأة فى تقدم الأمم وتأخرها .

وبالجملة فان ارتقاء الأمم يحتاج الى عوامل مختلفة متنوعة من أهمها ارتقاء المرأة ، وانحطاط الأمم ينشأ من عوامل مختلفة متنوعة أيضا من أهمها انحطاط المرأة .

فهذا الانحطاط فى مرتبة المرأة عندنا هو أهم مانع يقف فى سبيلنا ليصعدنا عن التقدم الى ما فيه صلاحنا . وعلى هذا فليست تربية المرأة من الكماليات التى ينتظر بها مرور الأزمان ويجوز الإبطاء فى اعداد الوسائل لها كما يتوهمه كثير من الناس الذين يطننون بمزايا تربية الذكور ويقومونها على تربية البنات ، وانما هى من الحاجيات ، بل من الضروريات التى يجب البدء بها والعناية بتوفير ما يلزم لها من المعدات . وهى الواجب الخطير الذى ان قمنا به سهل علينا كل اصلاح سواء ، وان أهملناه أفسد علينا كل اصلاح سواء .

دلت التربية الجديدة التى منحها نساء أوروبا من نحو قرن على أن المرأة ليست تلك الآلة البسيطة التى وقفها أولئك الأسلاف

الغافلون على التناسل ، فبمجرد ما حل العقل محل القوة وحلت الحرية محل الاستبداد رأى العالم أن فى المرأة أسراراً لم تعرفها الجاهلية الأولى ، وأنها تصلح لوظائف سامية مثل التى يصلح لها الرجال ، وأن انحطاطها كان عارضا لا طبيعيا . فلما استيقظت من نومها واستنار عقلها واستقامت ملكاتها وتحلت نفسها بالفكر والعلم ، ومرنت قواها على العمل صعدت من العقل الى درجة ، وذهبت فى رقة الشعور الى غاية لم تكن تخطر فى خيال أحد من أهل تلك العصور الحالية . وهى الى الآن كلما تمتعت بحريتها زاد ارتقاؤها .

كل مطلع على حركات النساء الغربيات وأعمالهن لا يشك فى أنهن يأتين من الأعمال العظيمة ما لا قوام للمدنية بدونه : لا يوجد فرع من فروع الصناعة والتجارة ولا علم من العلوم ولا فن من الفنون الا والمرأة عاملة فيه مع الرجل كتفا بكتف . ولا يوجد عمل خيرى الا وهى أول العاملين فيه . ولا تقع حادثة سياسية الا والمرأة نصيب فيها . وليس بين الصنفين فرق الا أن المرأة لم تنل الحقوق السياسية ، فاذا منحتها - كما هو المنتظر فى بلاد أوروبا - تمت المساواة بينهما . على أنها قد نالت منها الآن شيئا كبيرا حيث خول لها حق الانتخاب فى أمريكا وفى انكلترا فى المجالس البلدية وفى فرنسا فى المحاكم التجارية وفى بعض جمهوريات الولايات المتحدة تجلس المرأة فى المجالس الشورية .

ولا تخلو اليوم عاصمة من عواصم أوروبا وأمريكا من جمعية للنساء همها المطالبة بحقوق المرأة والسعى فى سبيل اكتسابها . وكل سنة تمر تترك فى تاريخ أعمالهن أثرا شريفا وتنتهى بفوز جديد .

ولا يشك أحد من الواقفين على هذه الحركة التى أظهر فيها هذا الصنف الضعيف قوة عجيبة أن المرأة لابد أن تصل فى زمن

قريب الى مستوى تبلغ فيه منتهى ما تطلب من مساواتها للرجال
فى جميع الحقوق ، ولا يعلم ماذا يكون بعد ذلك الا الله ، وهل تقف
النساء عند هذا الحد أو يسبقن الرجال فى ميدان التقدم والترقى .

ومن البلى أن هذه القوى التى تصرفها النساء فى التجارة
والصناعة والفنون والعلوم ان كانت كل واحدة منها على حدة
لا يظهر أثرها للناظر فى أحوال الأمة ، فان لجمعها مجموعا واحدا
يظهر أثره فى أحوالها تمام الظهور ، وهى رأس مال عظيم نحن
مقصرون فى العناية والانتفاع به .

وعندى أن من أعظم ما يؤسف عليه حرمان بلادنا من أعمال
النساء الخيرية ، لأن الميل الى الخير من غرائز المرأة الفطرية ،
ويقودها اليه رقة الاحساس وحنو القلب ، ولها من الصبر على خلة
الفقر والمريض ما لا يتحمله أعظم الرجال جللا ، ولها اعتناء جميل
واندفاع قلبى ، وهذه الصفات توجد عند النساء فى الغالب . غير
أن المرأة الجاهلة لا تجد من نفسها مرشدا يهديها الى سبيل الخير ،
فتصرف ما أودعه قلبها من كنوز الرحمة فى أصغر الأمور وأحقرها .

هذا هو عمل المرأة فى الأمم المتقدمة ، وقد وجد فى مبدا
الاسلام عدد غير قليل من النساء كان لهن أثر فى مصالح المسلمين
العامة . فجميع المسلمين يعلمون أن طائفة عظيمة من الأحاديث
النبوية على اختلاف مواضعها قد رويت عن عائشة وأم سلمة
وغيرهما من أمهات المؤمنين ونساء الصحابة ، وأن عددا غير قليل
من النساء اشتهرن بخدمة العلم وجودة الشعر ، وأن عائشة
تدخلت فى مسألة الخلافة العظمى وكانت رئيسة للحزب المعارض
لأحد الخلفاء . وانى أورد هنا بعض ما خطبت به على الناس تحملهم
على الانضمام الى الطائفة التى كانت قد انحازت اليها ، وهى الخطبة
التي ألقتها عند دخولها البصرة .

« ان الغوغاء من أهل الأمصار ونزاع القبائل غزوا حرم رسول

الله صلى الله عليه وسلم ، وأحدثوا فيه الأحداث ، وآووا فيه المحدثين .
وامستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله ، مع ما نالوا من قتل امام
المسلمين (عثمان) بلا ترة ولا عذر ، فاستحلوا الدم الحرام
فسفكوه ، وانتهبوا المال الحرام ، وأحلوا البلد الحرام والشهر
الحرام ، ومزقوا الأعراض والجلود ، وأقاموا في دار قوم كانوا
كارهين لمقامهم ضارين مضرين غير نافرين ولا متقين ، لا يقدر
على امتناع ولا يأمنون ، فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء
القوم وما فيه الناس وراءنا وما ينبغي لهم أن يأتوا في اصلاح هذه .
وقرات : « لا خير في كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة أو
معروف أو اصلاح بين الناس » ننهض في الاصلاح ممن أمر الله
عز وجل وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الصغير والكبير
والذكر والأنثى . فهذا شأننا الى معروف نأمركم به ونحضكم عليه ،
ومنكر ننهاكم عنه ونحضكم على تغييره » (١) . .

ويروى عن أم عطية أنها قالت : « وغزوات مع رسول الله
صلى الله عليه وسلم سبع غزوات ، وكنت أخلفهم في رحالهم ،
وأصنع لهم الطعام وأداوى الجرحى ، وأقوم على المرضى » .

والذى يقرأ هذه الأسطر يتخيل له أنه يرى امرأة غربية من
المرضات اللاتي وهبن حياتهن لخدمة الانسانية .

. والناظر في الأحوال التي فضلت فيها شريعتنا الرجل على
المرأة مثل الخلافة والامامة والشهادة في بعض الأحوال لا يجد
واحدة منها تتعلق بعيشتها الخصوصية وحريتها . وان الشارع
لم يراع في هذه المسائل القليلة الا عدم الخروج بالمرأة عن وظيفتها
في العائلة وحصر الوظائف الصومية في الرجال . وهو تقسيم

(١) تاريخ الطبرى ، جزء سادس ، صفحة ٣١٦ .

طبيعى جرى على مقتضاه الى الآن التمسك فى أوربا ، ولا يوجد فيه شىء يمنع من ترقية المرأة والوصول بها الى أعلى مرتبة تستحقها .
وما من عاقل يدرك الغرض الصحيح من تلك الحقوق العظيمة التى حولتها الشريعة الإسلامية الى المرأة فى جميع الأعمال المدنية - ومنها أهليتها لأن تكون وصية على رجل - يستحسن ما- يخالفها من عوائدنا التى تؤدى الى حرمان المرأة بالفعل من استعمال هذه الحقوق .

والقارىء الذى تتبع سلسلة القواعد الكلية التى سردتها بغاية الإيجاز لابد أن يكون قد لاحظ أنها كلها تتلخص فى عبارة واحدة هى : أنه لابد لحسن حال الأمة من أن تحسن حال المرأة . فإذا أرسل الناظر فكره ليحيط بأطراف هذا الموضوع الواسع وبجميع ما يرتبط به من المسائل انجلت له الحقيقة وتجلت له بجميع أسرارها فى صورة لا تشابه الخيال الذى كان يظنه جسما . يرى المرأة التى يهيئها المستقبل تتلأل فى أنوار جمالها ظاهرة مظهرها الفطرى ولايسة حلة كمالها الثنائى : الجسم والعقل .

العائلة

لا يتم اصلاح حال المرأة بمجرد التربية وحدها ، بل يحتاج الى
تكميل نظام العائلة . نعم ، ان ارتقاء مدارك المرأة مما يساعد على
كمال نظام العائلة ولكن هذا النظام نفسه على ما به من الارتباط
بالعوائد والأحكام الشرعية له هو الآخر دخل كبير فى ارتقاء المرأة
وانحطاطها . ولهذا رأينا من الضروري استلفات الفهن الى أهم
المسائل التى تمس حياة العائلة ، وهى الزواج والطلاق . وسنتكلم
عليها باختصار على هذا الترتيب .

الزواج

رايت فى كتب الفقهاء أنهم يعرفون الزواج بأنه « عقد يملك
به الرجل بضع المرأة » ، وما وجدت فيها كلمة واحدة تشير الى أن
بين الزوج والزوجة شيئاً آخر غير التمتع بقضاء الشهوة الجسدانية ،
وكلها خالية من الاشارة الى الواجب التى هى أعظم ما يطلبه شخصان
مهيّبان كل منهما من الآخر .

وقد رايت فى القرآن للشريف كلاماً ينطبق على الزواج ويصح
أن يكون تعريفاً له ، ولا أعلم أن شريعة من شرائع الأمم التى وصلت
الى أقصى درجات التمدن جاءت بأحسن منه . قال الله تعالى :

« ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم أزواجا لتسكنوا
اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » .

والذى يقارن بين التعريف الأول الذى فاضى من علم الفقهاء علينا ، والتعريف الثانى الذى نزل من عند الله ، يرى بنفسه الى أى درجة وصل انحطاط المرأة فى رأى فقهاءنا ، وسرى منهم الى عامة المسلمين . ولا يستغرب بعد ذلك أن يرى المنزلة الوضيعة التى سقط اليها الزواج حيث صار عقدا غايته أن يتمتع الرجل بجسم المرأة ، ليتلذذ به ، وتبع ذلك ما تبعه من الأحكام الفرعية التى رتبوها على هذا الأصل الشنيع .

فهذا النظام الجميل الذى جعل الله أساسه المودة والرحمة بين الزوجين آل أمره بفضل علمائنا الواسع الى أن يكون اليوم آلة استمتاع فى يد الرجل ، وجرى العمل على إهمال كل ما من شأنه أن يوجد المودة والرحمة ، وعلى التمسك بكل ما يخل بهما :

فمن دواعى المودة ألا يقدم الزوجان على الارتباط بعقد الزواج إلا بعد التأكد من ميل كل منهما للآخر . ومن مقتضى الرحمة أن يحسن كلاهما العشرة مع بعضهما . ولكن لما غفلنا عن معنى الزواج الحقيقى الشرعى استخففنا به وتهاونا بواجباته وكان من نتائج ذلك أن يتم عقد الزواج قبل أن يرى كل من الزوجين صاحبه .

بينما فيما سبق أن جميع المذاهب فى اتفاق على أن نظر المرأة المخطوبة مباح لخاطبها ، وذكرنا حديثا عن النبى صلى الله عليه وسلم أمر به أحد الأنصار أن ينظر الى خطيبته وهو قوله :

« انظر اليها فإنه احرى أن يؤدم بينكما » .

فما بالنا أهملنا هذه النصيحة على ما فيها من الفائدة ، مع أننا نتمسك بغيرها مما يقل عنها فى الأهمية ؟ ذلك لأن الجاهل من عاداته أن يبيل الى ما يضره وينفر مما ينفعه .

كيف يمكن لرجل وامرأة سليمى العقل قبل أن يتعارفا أن يرتبطا بعقد يلزمهما أن يعيشا معا ، وأن يختلطا كمال الاختلاط ؟

أرى الواحد من عامة الناس لا يرضى أن يشتري خروفا أو جحشا قبل أن يراه ويدقق النظر في أوصافه ويكون في أمن من ظهور عيب فيه ، وهذا الانسان العاقل نفسه يقدم على الزواج بخفة وطيش يحار أمامهما الفكر !

لعلك تقول ان المرأة ترى خطيبها من الشباك مرارا ، وأن الرجل يعرف بواسطة أمه أو أخته أوصاف خطيبته ، مثل سواد شعرها وبياض خدودها وضيق قمها واعتدال قوامها ورزانة عقلها وما أشبه ذلك ، فيكون عنده علم بما هي عليه من جمال وشمائل - نقول هذا قد يكون ، ولكن كل هذه الصفات متفرقة لا تفيد صورة ما ، ولا يمكن أن ينبعث عنها ميل الى طلبها ، لتكون عشيرة تطمئن لصحبته النفوس ، وتتعلق بها وبنسلها الآمال . وانما الذي يهم الانسان البصير هو أن يرى بنفسه خلقا حيا يفتكر ويتكلم ويفعل ، خلقا يجمع من الشمائل والصفات ما يلائم ذوقه ويتفق مع رغباته وعواطفه .

كثيرا ما يرى الواحد شخصا لم يكن رآه قبل ذلك ، وبمجرد ما يقع عليه نظره تنفر منه نفسه في الحال نفورا تاما ولا يعلم لذلك سببا . وربما يستقبح الناظر شخصا على بعد ، ولكنه متى دنا منه وفاض الحديث بينهما تبدل عنده ما وجد منه أولا بضده . وربما زين لأول نظرة منك صورة يظهر عليها بهاء الجمال حتى اذا دنوت منها تبدل ذلك الاحساس بضده لأول كلمة تصدر منها ، وخصوصا أن هذا الاحساس المادى سواء كان ميلا أو نفورا لا يتعلق بجمال وقبح المنظر ولا يحس به جميع الناس على طريقة واحدة . فان الانسان الواحد يكون مظهره سببا للنفور عند شخص وللميل عند شخص آخر !

فهذه الجاذبية الحسية لا بد منها عند الزوجين . وهي ان لم تكن ضرورية بين رجل وامرأة يطلبان الزواج بعضهما ببعض فلا أرى في أى شيء آخر تكون لازمة !

على أن الانجذاب المادى ليس كافيا فى الزواج ، بل يلزم أن يوجد أيضا توافق بين نفوس الزوجين ، أى أنه يوجد - لا أقول اتحادا لأنه مستحيل - وإنما ائتلاف بين ملكاتهما وأخلاقهما وعقولهما ، ولا تتأتى معرفة وجود هذا التوافق وعدم وجوده إلا إذا خالط كل منهما صاحبه ولو قليلا .

ولا يختلف اثنان فى أن الزواج الذى يبنى على هذا التوافق يكون أمرا محترما فى نفوس الزوجين ، وتكون عقده من المثانة بحيث لا يسهل انحلالها ، ويكون موجبا للعدة والتصون . وعندى أن كل زواج لا يؤسس على هذا الائتلاف فهو صفقة خاسرة لا خير فيها لأحد من الزوجين ، مهما طال أجل الزواج ، ومهما كانت صفات الرجل والمرأة . ولهذا قال الأعمش : « كل تزويج يقع على غير نظر فأمره هم وغم » .

ولما كان الزواج لا يراعى فيه اليوم هذا الشرط كانت الرابطة بين الزوجين واهية العقد تنحل لأول عرض يطرأ عليها . وأغلب ما يكون من ذلك لا سبب له إلا رغبة كل منهما فى الخروج من قيد لا يرى وجها للمحافظة عليه والتنصل من أمر لا قيمة له فى نفسه .

وكل ذى ذوق سليم يرى من الصواب أن يكون للمرأة فى انتخاب زوجها ما للرجل فى انتخاب زوجته ، فانه أمر يهمها أكثر مما يهم ذوى قرابتها . أما حرمانها من النظر فى كل ما يختص بزواجها وقصر الراى فى ذلك على أوليائها دون مشاركة منها لهم فهو بعيد عن الصواب .

قضت العادة عندنا أن يختنب الحديث مع البنت فيما يتعلق بالرجل الذى خطبها ، فلا يصلها خبر عن صفاته وأخلاقه ، ولا تسأل هل تحب الاقتران به ، ولا يبحث أحد عن ذوقها ورغبتها وميلها ، وهى لا تجد من نفسها جرأة على أن تبدي ما فى ضميرها . ويرى

الناس أنه لا يليق بالمرأة أن يكون لها صوت في أهم الأشياء لديها .
فيعطى القريب أو البعيد رايه في زواجها ما عداها ، ويظنون أن هذا
من تمام فضيلة الحياء وكمال الأدب ، وهم مخطئون فيما يظنون .

منحت شريعتنا السمحاء النساء حقوقا لا تنقص عن حقوق
الرجل في الزواج ، فلها الحق مثله في أن تتأكد بنفسها من امكان
تحقيق آمالها . وما علينا الا أن نسمع صوت شريعتنا ونتبع احكام
القرآن الكريم ، وما صحح من سنة النبي صلى الله عليه وسلم وأعمال
الصحابة لتتم لها السعادة في الزواج .

جاء في الكتاب العزيز : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف »
وكان ابن عباس يقول اتباعا لهذه الآية الكريمة :

« انى احب ان اتزين لامراتى كما احب ان تتزين
لى » وقال تعالى :

« وعاشروهن بالمعروف » .

وقال فى تعظيم حقهن :

« واخْلن منكم ميثاقا غليظا » .

وجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم :

« اكمل المؤمنين ايمانا احسنهم خلقا والطفهم باهلهم » .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحب النساء كما ورد فى
الحديث :

« حبب الى من دنياكم ثلاث : النساء والطيب وجعلت
قرة عيني فى الصلاة » .

وكان يحترم النساء احتراماً برهن للعالم على حسن خلقه حتى

انه كان يضع ركبته على الأرض لتضع زوجته عليها رجلها اذا ارادت أن تتركب ، وكان يتنازل الى ملاعبتهن وممازحتهن ، حتى روى أنه كان يسابق عائشة رضى الله عنها ، فسبقته يوما وسبقها فى بعض الايام فقال : « هذه بتلك » ، وكان يراف بالنساء ويوصى بهن دائما ، فما روى عنه قوله : « خياركم لنسائكم » . وقوله : « استوصوا بالنساء خيرا » . والأحاديث فى هذا الموضوع كثيرة كلها تدل على أن الدين الاسلامى يحث على اعتبار المرأة واحترام حقها ومعاملتها بالاحسان والمعروف .

ولكن ما دامت المرأة على ما هى عليه اليوم من الجهل فالزواج لا يكون - كما هو الآن - الا شكلا من الأشكال العديدة التى يستبد بها الرجل بالمرأة .

أما اذا تعلمت المرأة حقوقها وشعرت بقيمة نفسها فعند ذلك يكون الزواج الوسطة الطبيعية لتحقيق سعادة الرجل والمرأة معا ، عند ذلك تؤسس الزوجية على انجذاب شخصين يحب أحدهما الآخر حبا تاما بجسمهما وقلبهما وعقلهما ، عند ذلك تعيش المرأة تحت حكم عقلها ، فتنتخب من بين الرجال من تحبه وتميل اليه وترتبط به بعقد الزواج ، ويعرف أهلها أن فى كمال عقلها ما يكفى لحسن اختيارها ، فيكونون معها على اتفاق فى الرأى ، فلا تخشى غضبهم ولا انتقاد الناس إياها . عند ذلك يعرف الرجال قيمة النساء ويلتقون لذة الحب الحقيقى .

انظر الى زوجين متحابين تجدهما فى نعيم الجنة . ماذا يهمهما أن يكون الصندوق خاليا من المال أو أن يكون على المائدة غلى وبصل ؟ أما يكفيهما فرح القلب فى كل دقيقة تمر من اليوم : هذا الفرح الذى يبعث النشاط فى الجسم ، والطمأنينة فى النفس ، ويحيى فى القلب شعورا بلذة الحياة ، ويؤثر فيها له ، ويخفف ثقلها

عليه ، ويجعلها منه فى مكان الرضى ، حتى قال عمر بن الخطاب :
« ما أعطى العبد بعد الايمان خيرا من امرأة صالحة » .

اين هذا من حال عائلتنا اليوم التى نرى فيها الزوجين واحدهما
أبعد الناس عن الآخر . ولو لم يكن الا هذا البعد لخف احتمالاه ،
لكن لما كان فى طبيعة الانسان أن يجرى وراء سعادته كان كل من
الزوجين يعتقد أن صاحبه هو الحجاب الحائل بينه وبينها ، ومن
هذا الاعتقاد يتكون فى المنزل جو مشحون بالقيم والكهرباء يعيش
فيه كل منهما وقلبه ملائ بعيون الآخر . وتبدو فيه المناقشات
والمخاصمات فى كل آن بسب وبغير سبب فى الصباح وفى المساء ،
حتى فى الفراش .

وتنتهى هذه الحالة بأن تتخلى المرأة عن بيتها الى الخدم يفعلون
فيه ما يشاءون ، فيستولى الاختلال على ما فيه ، وتظهر فيه آثار
الاهمال ، فيبدو للناظر اليه كأنه غير مسكون بأهله ، ويعلو التراب
فراشه ، والقذر موائده ، وتقل شئون الزوج والاولاد فى ماكلهم
ومشربهم وملابسهم ، وتقضى الزوجة أوقاتها فى مكان واحد تفكر
فى سوء ما وصلت اليه ، أو تترك منزلها من الصباح وتطوف على
جاراتها لتفرج عن نفسها تلك الهموم .

وليس الرجل بأحسن منها حالا : فانه يهجر منزله ويستريح
الى العيش فى المقاهى أو عند جيرانه ، فاذا رجع الى بيته طلب العزلة
عن زوجته والتزم السكوت .

نتج مما تقدم أن الزواج على غير نظر - كما هو حاصل الآن -
- انما هو طريقة يستعملها الرجل فى الغالب للاستمتاع بعدد من
النساء يدخلن فى حيازته دفعة واحدة أو على التعاقب ، ولا تجد
فيه المرأة مزية ترضى نفسها .

وكان رجل يقصد من الزواج أن تكون له صاحبة تشاركه في السراء والضراء يصعب عليه ، بل قد يتعذر ، أن يبلغ ما يريد من ذلك . ولهذا السبب رأينا في هذه السنين الأخيرة كثيرا من الشبان القادرين على الزواج لا يرغبون فيه . ولما كان عدد الرجال المهذبين يزداد في كل سنة - لأن الشعور بوجوب تربية البنين تقلص وسيقتصر كثيرا في المستقبل - صارت تربية المرأة على مبدأ التعليم والحرية أمرا ضروريا لا يستغنى عنه . والا فما علينا الا أن نعلن أن الثقة بالزواج قد فُقدت ، وأن المعاملة به قد بطلت وحق عليه الإفلاس .

ولست مبالغا ان قلت ان رجال العصر الجديد يفضلون العزوبة على زواج لا يجدون فيه أمانهم المحبوبة ، فانهم لا يرضون الارتباط بزوجة لم يروها ، وانما يطلبون صديقة يحبونها لا خادمة تستعمل في كل شيء ، ويطالبون أن تكون أم أولادهم على جانب من العلم والخبرة يسمح لها بتربية أولادها على مبادئ الأخلاق الحسنة وقواعد الصحة .

وكل من تجرد عن التعصب وحب التمسك بالعوائد القديمة لابد أن ينشرح صدره عندما يرى نمو هذا الميل في نفوسهم ، ويرى من نفسه وجوب الاصغاء الى مقالهم والنظر في مطالبهم ، فلا يستهجنها لأول وهلة ، ولا يرميهم بالتفرونج في آرائهم قبل البحث فيها ، بل يزنها بميزان العقل والشرع ، وحتى ثبت له أن هذا التغيير الذي نطلبه ليس الا رجوعا في الحقيقة الى أصول الدين وهوائه للمسلمين السابقين ، وأنه اصلاح يقضى به العقل السليم ، لا يتأخر عن مساعدتهم على تأييدها .

تعدد الزوجات

تعدد الزوجات هو من العوائد القديمة التي كانت مألوفة عند ظهور الاسلام فى جميع الأنحاء ، يوم كانت المرأة نوعا خاصا معتبرة فى مرتبة بين الانسان والحيوان ، وهو من ضمن العوائد التي دل الاختيار التاريخي على أنها تتبع حال المرأة فى الهيئة الاجتماعية ، فتكون فى الامة غالبية عندما تكون حال المرأة فيها منحلة ، وتقل أو تزول بالمرّة عندما تكون حالها مرتقية ، الا اذا كان التعدد لأسباب خاصة قضت به عند فرد أو افراد مخصوصين فتقف عندهم وتقدر بقدرهم . حتى فى الامة التي ألف تعدد الزوجات فيها نرى الرجل اذا بلغ من كمال العقل ما يشعر معه بمنزلة زوجته من أهله وأولاده ، وعرف أن من حقوقها أن تكون فى المرتبة التي تستحقها بمقتضى الشرع والفطرة ، مال الى الاكتفاء بالواحدة من الزوجات . ويمكن الاستدلال على ذلك بما نشاهده ، ولا نطن أحدا ينازعنا فيه من أن هذه العادة خفت فى بعض الطبقات من أهل بلادنا عما كانت عليه من قبل عشرين أو ثلاثين سنة .

نعم ان منح الرقيق كان له أثر محمود فى سقوط هذه العادة حيث قطع ورود الجوارى التي كانت تملأ بيوت أكابر القوم وأعيانهم ، ولكن يظهر لى أن ترقى عقول الرجال وتهذيب نفوسهم له أثر مهم أيضا فى تلاشيتها ، ذلك لأن الرجل المهذب لا يرضى معاملة المرأة بالاستبداد ، ولا تطاوعه مروءته ان همت شهوته بامتثالها .

وبدعى أن فى تعدد الزوجات احتقارا شديدا للمرأة ، لأنك لا تجد امرأة ترضى أن تشاركها فى زوجها امرأة أخرى ، كما أنك لا تجد رجلا يقبل أن يشاركه غيره فى محبة امرأته . وهذا النوع من حب الاختصاص طبيعى للمرأة كما أنه طبيعى للرجل . ولو سلم أنه ليس بطبيعى كما ذهب الى ذلك قوم استشهدوا على رأيهم بمثل

الذي الواحد الذي يعيش بين العشرات من الدجاج فاقبل ما فيه
انه ميل مكتسب بلغ من النفس الانسانية بالمادة والتوارث مبلغ
جميع الكمالات التي تولدت في نفوس افراد هذا النوع عند ارتقائه
من أدنى درجاته من الحيوانية الى ما أعد له من الكمال الانساني ،
فهذا الاختصاص بما كسبه من التأصل في الانفس والرسوخ فيها
لا يقل أثره عن أثر الفرائز الفطرية .

وعلى كل حال فكل امرأة تحترم نفسها تتألم اذا رأت زوجها
ارتبط بامرأة أخرى ، اذا لا يخلو حالها من أحد أمرين : اما أن تكون
مخلصة في محبتها لزوجها فتلتهب نيران الغيرة في قلبها وتنوق
عذابها ، واما أن لا تكون كذلك لكنها راضية بعشرته لسبب من
الاسباب ، فهي مع ذلك ترى لنفسها مقاما في أهله ، فاذا ارتبط
بأخرى سواها قاست من الألم ما يبعثه احساسها بأن ذلك المقام الذي
كان باقيا لها قد انهدم ، ولم يعد لها أمل في بقاء شيء من كرامتها
عنده ، فالألم لاصق بها على كل حال .

وان قيل ان التجارب دلت على امكان الجمع بين امرأتين أو
أكثر من ظهور رضاء كل منهن بحالتها ، والجواب عنه من وجهين :
الأول أن ما يدعى من رضاء كل منهن بحالها ليس بصحيح الا في
بعض افراد نادرة لا حكم لها في تقدير حال أمة ، وأن وقائع المنازعات
بين النساء وأزواجهن والجنائيات التي تقع بينهم مما لا يكاد يحصى ،
وهو شاهد على أن تعدد الزوجات مثار للنزاع بينهما وبين ضرائرهن
وبين أزواجهن ومصدر لشقاء الأهل والأقارب . فمن يدعى أن نساءنا
يرضين بمشاركتهن في أزواجهن ، ويعشن مع ذلك باطمئنان قلب
وراحة بال ، فهو غير عارف بما عليه حالة النساء في البيوت .

والثاني أن ما يكون من ذلك الرضاء في القليل النادر ناشئ
عن أن المرأة انما تعتبر نفسها متاعا للرجل ، فله أن يختص بها ،

وله أن يشارك معها غيرها كيفما شاء ، وليس لها على هواه حق تطالبه به ، كما كان الرجال عندنا يعتبرون أنفسهم متاعا للحكام فى عهد ليس بعيدا عنا !

ويظهر لى أن رجلا مهذبا عارفا بما يفرضه عليه الشرع والعدل لا يطبق النهوض بما يفرضه على عاتقه الجمع بين امرأتين فضلا عن أكثر .

قدمنا أن فى فطرة المرأة ميلا الى التسلط على قلب الرجل ، فإذا رأت بجانبه امرأة أخرى فى فطرتها ذلك الميل ، ويمكنها أن تبلغ منه بضروب الوسائل ما تشتهى ، تولاهما الاضطراب والقلق ، وهجرتها الراحة ، وكانت حياتها عذابا أليما ، وتلك الحال لا تخفى على الرجل المهذب ، فكيف يمكن أن تطيب نفسه بمشهد ذلك العذاب الأليم ؟

ويزيد النساء قلقا واضطرابا ما صرح به الفقهاء من أنه لا يجب على الرجل أن يمدل فى محبته بين نسائه ، وإنما طلبوا العدل فى النفقة وما شاكلها .

ولا ريب فى أن شقاء المرأة بهذه الحال يكون له أثر شديد فى نفس الرجل المهذب حيث يشعر دائما بأنه هو السبب فى هذا الشقاء .

ثم ان الأولاد من أمهات مختلفات ينشأون بين عواصف الشقاق والخصام ، فلا يجدون ما يساعد غرائزهم على تمكين علائق المحبة بينهم ، بل يجدون ما يعكس تلك الغرائز ، وينمى فى نفوسهم البغضاء ، ولا يستطيع أحد أن يحول بين ما يشهدون من تخاصم أمهاتهم بعضهم مع بعض ، وتخاصمهم مع والدهم ، وبين أثر ذلك فى نفوسهم . بل يسرى فى أفئدتهم سم الفس والخذعة والشر ،

ويظهر أثر كل ذلك عند الفرصة : مثلهم كمثل الممالك الأوربية تظهر بحالة السلم وهي تأخذ أهبتها للحرب ، حتى اذا حانت الفرصة وثب كل منهم على الآخر فمزق بعضهم بعضا كما نشاهد في أغلب العائلات .

أين هذا من منظر عائلة متحدة يعيش فيها الأولاد في حضن والديهم ، تجمعهم محبة صادقة ، لا يتنافسون الا في زيادة الحب ، ولا يتسابقون الا الى الخير ، يصل من بعضهم الى بعض ، يربطهم ميثاق غليظ جعلهم كأعضاء جسم واحد ، ان فرح أحدهم فرحوا معه ، وان بكى بكوا معه . هم سعداء الدنيا في كل حال ، أسبغ الله عليهم أكبر نعمة يتمناها العاقل وهي المودة في القربى .

فلا ريبة بعد هذا أن خير ما يصله الرجل هو انتقاء زوجة واحدة ، ذلك أدنى أن يقوم بما فرض عليه الشرع ، فيوفى زوجته وأولاده حقوقهم من النفقة والتربية والمحبة ، وأقرب الى الوصول الى سعادته .

ولا يحذر رجل يتزوج أكثر من امرأة ، الا في حالة الضرورة المطلقة ، كان أصيبت امرأته الأولى بمرض مزمن لا يسمح لها بتأدية حقوق الزوجية . أقول ذلك ولا أحب أن يتزوج الرجل بأمرأة أخرى حتى في هذه الحالة وأمثالها ، حيث لا ذنب للمرأة فيها . والمروءة تقضى أن يتحمل الرجل ما تصاب به امرأته من العلل كما يرى من الواجب أن تتحمل هي ما عساه كان يصاب به .

وكذلك توجد حالة تسوغ للرجل أن يتزوج بثانية اما مع المحافظة على الأولى اذا رضيت أو تسريحها ان شامت : وهي ما اذا كانت عاقرا لا تلد ، لأن كثيرا من الرجال لا يتحملون أن ينقطع النسل في عائلاتهم .

اما في غير هذه الأحوال فلا أرى تعدد الزوجات الا حيلة شرعية

لقضاء شهوة بهيمية ، وهو علامة تدل على فساد الأخلاق واختلال
الحواس وشره فى طلب اللذائذ .

والذى يطيل البحث فى النصوص القرآنية التى وردت فى
تعدد الزوجات يجد أنها تضم اباحة وحظرا فى آن واحد . قال تعالى :
« فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع .
فان خفتم الا تعدلوا فواحدة او ما ملكت ايمانكم . ذلك ادنى
الا تعولوا » . « ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو
حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتلهوها كالمعلقة وان تصلحوا
وتتقوا فان الله كان غفورا رحيمًا » .

ومن هذه الآيات يتضح ان الشارع علق وجوب الاكتفاء بواحدة
على مجرد الخوف من عدم العدل ، ثم صرح بأن العدل غير مستطاع .
فمن ذا الذى يمكنه الا يخاف عدم العدل مع ما تقرر من أن العدل
غير مستطاع ؟ أولا يخاف الانسان من عدم القيام بالمحال ؟ اظن أن
فمن ذا الذى يمكنه الا يخاف عدم العدل مع ما تقرر من أن العدل
كل بشر اذا اراد الشروع فى عمل غير مستطاع يخاف ، بل يعتقد
أنه يعجز عن القيام به والوقوع فى ضده .

ولو أن ناظرنا فى الآيتين أخذ منهما الحكم بتحريم الجمع بين
الزوجات لما كان حكمه هذا بعيدا عن معناها لولا أن السنة والعمل
جاءا بما يقتضى الاباحة فى الجملة .

وكان مجموع الآيتين قد قضى بتحليل الجمع بين الزوجات
ديانة ، وبأن الله تعالى وكل الناس فى ذلك الى ما يجدونه من أنفسهم .
فمن بلغت ثقته حدا لا يخاف معه أن يجوز اذا اراد أن يتزوج أكثر
من واحدة أبيع له ذلك بينه وبين الله ، ومن لم يصل الى هذا الحد
من الاقتدار والتحفظ من الجور حرم عليه أن يتزوج أكثر من واحدة .
ثم نبه مع ذلك على أن هذه الغاية من قوة النفس لا يمكن ادراكها
زيادة فى التحذير .

وغاية ما يستفاد من آية التحليل انما هو حل تعدد الزوجات
اذا أمن الجور . وهذا الحلال هو كسائر أنواع الحلال تعتريه الأحكام
الشرعية الأخرى من المنع والكراهة وغيرها بحسب ما يترتب عليه
من المفاسد والمصالح ، فإذا غلب على الناس الجور بين الزوجات
كما هو مشاهد في أزماننا ، أو نشأ عن تعدد الزوجات فساد في
العائلات ، وتعد للحدود الشرعية الواجب التزامها ، وقيام العداوة
بين أعضاء العائلة الواحدة ، وشيوع ذلك الى حد يكاد يكون عاما ،
جاز للحاكم رعاية للمصلحة العامة أن يمنع تعدد الزوجات بشرط
أو بغير شرط على حسب ما يراه موافقا لمصلحة الأمة .

وانه ليجمل برجال هذا العصر أن يقلعوا عن هذه العادة من
أنفسهم ، ولا اظن أن أحدا من أهل المستقبل يأسف على تركها ،
فان التمتع بالنساء وان قل في هذه الحالة من الجهة الشهوانية فانه
يزيد من الناحية المعنوية التي تلزم أن تكون وجهة كل راغب في
الزواج . فان رجلا يسوقه الى الزواج سائق العقل ، ويوجهه رغبته
اليه حادى الفكر ، يعلم أنه انما يتخذ لنفسه بالزواج قرينا صالحا
يمده بالمعونة في شؤونه ، ويؤنسه في وحدته ، ويشفقه في عمله ،
ويقوم معه على بنيه ومن يحول من أهله ، فهو يتخير لذلك خير
العقائل وأكرم السلائل ، ويصطفئها على ما يحب من العقل والأدب
وطهارة الظاهر وسلامة الباطن ، فيكون له منها منظر بهي وملبس
شهي وصورة تعجب ومعنى يطرب . فهم يسبق الاشارة ، وذكاء
يستغنى عن العبارة ، لذة بلطف الشمائل ، ومتاع بجمال الفضائل .

كل ذلك يكون له من زوجة يختارها ، لتكون صاحبة له مدة
تأمن شره وانتقابه ، ويأمن منها المكر والخلافة ، تحسن القيام على
أولاده بالتربية الصالحة ، وتغذيهم بأادابها كما غذتهم بلبانها ،
فتأخذ أرواحهم من روحها ما أخذته أبدانهم من بدننها ، فينشأون

على المحبة ، ويشبون على الالفة ، فيكون للرجل من ذلك كله مشاهد
ظاهرة الراجة والطمانينة وباطنه السعادة والهناء . يعيش ساعة مع
التمتع به خير من حياة دهر مع الحرمان من بعضه . فإين التمتع
يمثل هذه اللذة من الخلود الى ما انحط من دركات الشهوة ؟

الطلاق

قال فولتير الكاتب الفرنسى الشهير على طريقته من الفكاهة
المعروفة فى كثير من مؤلفاته : « ان الطلاق قد وجد فى العالم مع
الزواج فى زمن واحد تقريبا ، غير انى اظن أن الزواج أقدم ببضعة
أسابيع . بمعنى أن الرجل ناقش زوجته بعد أسبوعين من زواجه ،
ثم ضربها بعد ثلاثة ، ثم فارقها بعد ستة أسابيع » . وقد أراد بذلك
أن يقول ان الطلاق قديم فى العالم ، وانه يكاد أن يكون من الأعراض
الملازمة للزواج . وهو حق لا يرتاب فيه ، فقد دل تاريخ الأمم على
أن الطلاق كان مشروعا عند اليهود والفرس واليونان والرومان ،
وأنه لم يمنع الا فى الديانة المسيحية بعد مضى زمن من نشأتها .
ولا يزال اثر ذلك المنع باقيا الى الآن فى شرائع الأمم الغربية
التي وضعت الزواج على قاعدة أنه عقد لا ينحل الا بموت أحد
الزوجين . وهذا افراط فى احترام هذا العقد ومقالة فيه الى حد
يصعب أن يتفق مع راحة الانسان .

نعم ، ان أمانى الأمم الصالحة أن تكون عقدة الزواج عندها
عقدة لا تنحل الا بالموت ، ولكن مما تجب مراعاته أن الصبر على
عشرة من لا تمكن معاشرته فوق طاقة البشر .

ولهذا شجرت الأمم الغربية على مر الأزمان بأن أحكام الكنيسة
تطالب الناس بالكمال المطلق بدون مراعاة حاجاتهم وضرورتهم .

وكان هذا الشعور من بواعث حركة النفوس الى التخلص من ربه تلك الاحكام ، فنزع الغريبيون الى وضع القوانين على حسب مصالح حياتهم وما تقتضيه الحاجات . ولقد اشتد هذا الشعور في الناس حتى اضطرت الكنيسة نفسها لأن تخضع لمطالبه وموافاة رغائب الكافة ، وحملها الشبح بمكانتها أن تسقط على تقرير احكام في احوال سميتها « احوال بطلان الزواج » ، ورتبت على ذلك البطلان احكاما لا تختلف في آثارها عن احكام الطلاق ، فقبلت فسخ الزواج اذا أثبت أحد الزوجين أنه لم يكن عند الزواج مطلق الاختيار ، أو أنه خطأ في معرفة الآخر ، أو اذا ادعى أحد الزوجين أن الآخر لا يستطيع القيام بحقوق الزوجية . وأخذت تتوسع في تأويل الحالة الثانية الى درجة متناهية حتى ادخلت فيها كل شيء . وفي الحالة الأخيرة قد تكتفى بأن يتفق الزوجان على أن يسعى أحدهما أن الآخر لم يقم أو لم يعد في إمكانه أن يقوم بأول واجب يوجب الزواج لينالا بطلانه محتجة بأن الاخلال بهذا الحق لا تمكن معرفته الا من قبل الزوجين ، فقولهما هو الدليل الذي يصح التعميل عليه .

الا أن هذا التساهل لم يف بحاجات الأمم في هذا الباب ، فبعد أن قنعت به مدة من الزمان انبعثت مرة أخرى الى المطالبة بتقرير احكام كافلة للراحة ، اذ رأت أن هذه الأسباب التي قررتها الكنيسة لبطلان الزواج تغلب فيها الحيلة قلما تتفق فيها الحقيقة ، وأن قيام شريعة على قوائم من الحيل مما لا ترضاه النفوس المهذبة والأذواق السليمة .

ومن أجل ذلك اضطرت الحكومات الى تقرير الطلاق والتصريح بجوازه على شروط بينها وأوصعت له محلا من قوانينها . وهكذا انحسر سلطان الكنيسة عما كان يتناوله في هذه المادة ، كما بطلت سيطرتها في كل ما لم تنطق فيه احكامها مع مصالح تلك الأمم . وهذا هو الشأن في كل شرع أو دين لا يراعى أهله في احكامه

مقتضيات الزمان والمكان ، ويففلون عن طبيعة الانسان ، ويقفون به في مكان واحد عندما قرره بعض من سبقهم بدون انعام نظر في اسراره وطرق تنفيذه .

دخل الطلاق في جميع الشرائع الغربية تقريبا برغم معارضة الكنيسة واصرارها على القول بأن من طلق بحكم القانون لا يجوز له أن يتزوج لعل اعتبارها ذلك الطلاق ، ولكنه لم يصل الى الدرجة التي يستحقها من القبول والاعتبار ، ولم يستوف أحكامه الا عند الأمة الأمريكية التي فاقت غيرها ببذلها المجهود في الاقدام على طلب الترقى ، ففتحت أبواب شريعتها للطلاق ولم تقيده بأحوال مخصوصة كما قيده غيرها .

وكل مطلع على أحوال الأمم الغربية يرى الميل عند جميعها الى التوسع في الطلاق ، ولا بد أن تنتهي يوما الى الاعتراف بأن ما أباحته الى الآن من الطلاق المشروط بثبوت الزنا على أحد الزوجين ، أو الحكم عليه بمقوبة في أحوال مخصوصة ، غير واف بالحاجة ، وعند ذلك تقرر اباحة الطلاق متى وجبت أسبابه في نفوس الزوجين وتتركه الى مشيئتهما .

نعم ، ان اباحة الطلاق بدون قيد لا تخلو من ضرر ، ولكنه من المضرات التي لا يستغنى عنها ، ويكفى لتسوينه أن منافعه تزيد على مضاره . فان كل نظم لا يخلو من ضرر ، والكمال التام في هذه الحياة الدنيا أمر غير مستطاع .

ونحن لا نريد البحث في هذا الموضوع الواسع لأننا اجتنبنا في هذا المختصر كل بحث نظري ، وانما نقول ان من أجال النظر في نصوص الكتاب العزيز ، وما اشتمل عليه من الآيات المقررة للطلاق وأحكامه ، يشعر بالنعم التي أفاضها الله على المسلمين ،

ويقتنع بأن كتاب الله قد أتى من الحكمة على منتهاها ، وأنه وفي كل شيء حقه .

وأول ما يجب الالتفات إليه هو أن شرعنا الشريف قد وضع أصلا عاما يجب أن ترد إليه جميع الفروع في أحكام الطلاق ، وهو أن الطلاق محظور في نفسه مباح للضرورة . والشواهد على ذلك كثيرة في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وما جاء في كلام الأئمة ، نورد منها ما يأتي :

قال تعالى :

« فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » .
وقال جل شأنه :

« وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من اهله وحكما من اهلها ان يريدوا اصلاحا يوفق الله بينهما »
وقال تعالى :

« وان امرأة خافت من بعلها نشوزا او اعراضا فلا جناح عليهما ان يصلحا بينهما صلحا والصلح خير واحضرت الأنفس الشح وان تحسنوا وتتقوا فان الله كان بما تعملون خبيرا » .
وجاء في الحديث : « ابنض الحلال عند الله الطلاق » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « لا تطلقوا النساء الا من رغبة ، ان الله لا يحب النواقين ولا النواقيات » . وقال على كرم الله وجهه : « تزوجوا ولا تطلقوا ، فان الطلاق يهتز منه العرش » .
وجاء في حواشي ابن عابدين : « ان الاصل في الطلاق الحظر ، بمعنى أنه محظور الا لعارض يبيحه ، وهو معنى قولهم الاصل فيه

الحظر والاباحة للحاجة الى الخلاص . فاذا كان بلا سبب أصلا لم يكن فيه حاجة الى الخلاص ، بل يكون حقا وسفاهة رأى ومجرد كفران بالنعمة واخلاص الابداء بالمرأة وبأهلها وأولادها . ولهذا قال الله تعالى :

« فان اطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » أى لا تطلبوا الفراق ،

انتهى (١) .

والمطلع على كتب الفقه - وإن كان يجد أن جميع الأئمة قد نظروا على الصوم الى هذا الأصل الجليل الذى من شأن الصل عليه تضييق دائرة الطلاق بما يصل اليه الامكان - لابد أن يلاحظ أيضا أنهم لم يراعوا فى التفريع تطبيق هذا الأصل على طريقة واحدة متساوية ، ويرى أن الفقهاء من أتباع الأئمة قد توسعوا فى أمر الطلاق ، ولم تطرد طريقتهم على وتيرة واحدة فى تطبيق الأحكام على الوقائع . وهذا الاختلاف يشاهد على الخصوص فى ثلاث مسائل كلها جديرة بالالتفات :

أولها : مسألة وقوع الطلاق الصريح بدون اشتراط النية - فقد خالف بعض الفقهاء خصوصا من المنحبه الحنفى فى هذه المسألة الأصول العامة التى بنى عليها معظم أحكام الشريعة ، وفاضت بها نصوص الكتاب والسنة ، كالأصل المقرر لعدم تكليف المكره والغافل والمخطئ ، وأخرج الطلاق من مشمول هذا الأصل ، فقتضى بوقوعه على المكره والمخطئ والهازل والسكران مع تعريفهم السكران بأنه هو الذى لا يميز السماء من الأرض .

وظاهر أن أهل هذا الرأى لم يحولوا على النية التى هى أساس الدين الاسلامى كما يستفاد من حديث « إنما الأعمال بالنيات » ،

كما أنهم لم يلتفتوا الى قصد الشارع فى أن ، لطلاق محظور فى الأصل ، وأنه أبغض الحلال عند الله ، وقد عللوا نفاذ الطلاق فى الأحوال التى أشرنا إليها بأسباب أذكرها للقارىء وأترك له مسئولية الحكم عليها :

قرأت فى كتاب الزيلعى ما معناه « أن طلاق الهلزل والمخطئ ، يقع ، لأن لفظ الطلاق ذكر على لسان الزوج ، وأن طلاق المكره يقع لأنه عرف الشرين واختار أهونهما • وأما السبب فى وقوع طلاق السكران فلأنه ارتكب معصية فىكون نفاذ الطلاق زجرا له ، (١) •

ولكننا نحمد الله على أن فى المذاهب الإسلامية الأخرى ما يخالف ذلك ، ويتفق مع أصول الشريعة ومصلحة العامة ، ويمكن لمريد الإصلاح أن يأخذ به فيقرر بطم صحة الطلاق الذى يقع فى تلك الأحوال •

ثانيها : أن الطلاق الذى نص عليه القرآن هو واحد رجعى دائما • قال تعالى :

« يا أيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن واحصوا العدة واتقوا الله ربكم ، لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا • فإذا بلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف واشتهوا ذوى عدل منكم » ، وقال تعالى : « وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك ان أرادوا أصلا » •

ولكن قسم الفقهاء الطلاق الى صريح وبالكتاب ، وقالوا بالطلاق

الصريح تقع واحدة رجعية ، ولو نوى أكثر من واحدة أو نوى واحدة
بائنة . أما بالكتابة فيكون الطلاق بائنا لا تصح بعده الرجعة ،
ولا تحل الزوجة الا بعقد جديد الا فى بعض ألفاظ استثنوها ويقع
بها الطلاق ثلاثا ان نوى الثلاث .

الا أنه يوجد فى مذهب آخر كمذهب الشافعى رضى الله عنه أن
الكنايات جميعها رجعية . ووجه الحق فى هذا المذهب ظاهر ، فانما
الطلاق طلاق على كل حال ، وهو فصل عصمة المرأة من الرجل .
فاختلاف الألفاظ بالنسبة الى هذا المعنى انما هو اختلاف عبارة
لا يصح أن يتعلق به اختلاف حكم . ولو سلم اختلاف الأحكام باختلاف
الألفاظ فى مثل هذا الباب لكان الأوجه أن يكون حكم الكناية أخف
من حكم الصريح .

ثالثها : اتفق أغلب المذاهب على أن الطلاق ثلاثا متفرقة فى
حيض واحد أو فى مرة واحدة وبلغت واحد يقع ثلاثا . على أن هذا
النوع من الطلاق الذى اعترف الفقهاء أنفسهم بأنه بدعى - أى مخالف
للكتاب والسنة - لا يمكن تصوره على الكيفية التى قررها الفقهاء ،
ونصوص القرآن كلها تأبى تأويلهم . قال تعالى : « الطلاق مرتان
فأمسك بمعروف أو تسريح بإحسان » ، وجاء فى تفسير هذه الآية
فى كتاب « حسن الأسود » : « وانما قال سبحانه مرتان ولم يقل
طلقتان إشارة الى أنه ينبغي أن يكون الطلاق مرة أخرى لا طلقتان
دفعة واحدة . كذا قال جماعة من المفسرين » . وجاء فيه أيضا :
« قد اختلف أهل العلم فى ارسال الثلاث دفعة واحدة هل تقع ثلاثا
أو واحدة فقط ، فذهب الى الاول الجمهور ، وذهب الثانى من عداهم
وهو الحق . وقد قرره العلامة الشوكانى فى مؤلفاته تقريرا بالغا

وافرده برسالة مستقلة ، وكذا الحافظ بن القيم في اغاثه اللهبال
واعلام الموقعين ، (١) .

وجاء في ابن عابدين : « وعن الامامية لا يقع بلفظ الثلاث
ولا في حاله الحيض لانه بدعة محرمة » . وعن ابن عباس يقع به
واحدة ، وبه قول ابن اسحاق وطاووس وعكرمة لما قى مسلم من ان
ابن عباس قال : كان الطلاق على عهد رسول الله صلى الله عليه
وسلم وأبى بكر ، وسنتين من خلافه عمر ، طلاق الثلاث واحدة .
فقال عمر ان الناس قد استعجلوا في أمر كان لهم فيه أناة ، فلو
أضيناه عليهم ، فأمضاه عليهم . وذهب جمهور الصحافة والتابعين
ومن بعدهم من أئمة المسلمين الى أنه يقع ثلاثا . قال في « الفتح » ،
بعد سوق الأحاديث الدالة عليه : وهذا يعارض ما تقدم . وأما
امضاء عمر الثلاث عليهم مع عدم مخالفة الصحافة له وعلمه بأنها
كانت واحدة فلا يمكن الا وقد اطلعوا في الزمان المتأخر على وجود
ناسخ أو لعلهم بانتهاء الحكم لذلك لعلهم باناطته بعبان علموا
انتفاها في الزمن المتأخر . وقول بعض الحنابلة : توفي رسول الله
صلى الله عليه وسلم عن مائة ألف عين رأته ، فهل صح لكم عنهم
أو عن عشر عشر عشرهم القول بوقوع الثلاث باطل . أما أولا
فاجماعهم ظاهر ، لأنه لم ينقل عن أحد منهم أنه خالف عمر حين أمضى
الثلاث ، ولا يلزم في نقل الحكم الاجماعي عن مائة ألف تسمية كل
في مجله كبير لحكم واحد على أنه اجماع مسكوتى ، (١) .

وقد روى في هذه المسألة من الأحاديث مالا يدع شكاً في أن
الطلاق الثلاث في مجلس واحد لا يقع الا واحدة . جاء في الزيلعي :
« وقال ابن عباس أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجل

طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعا فقام غضبان ثم خال : « ايلعب
 بكتاب الله وأنا بين أظهركم » . ذكره القرطبي ورواه النسائي (١)
 وجاء فيه أيضا : « وذهب أهل الظاهر وجماعة منهم الشيعة الى أن
 الطلاق الثلاث جملة لا يقع الا واحدة لما روى عن ابن عباس أنه قال :
 « كان الطلاق الثلاث على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي
 بكر ومثنتين من خلافة عمر رضي الله عنهم واحدة فأما بعد ذلك
 رضي الله عنه » ، رواه مسلم والبخاري . وروى ابن اسحاق عن
 عكرمة عن ابن عباس أنه قال : طلق ركائة بن عبد يزيد زوجته
 ثلاثا في مجلس واحد فحزن عليها حزنا شديدا فسأله عليه الصلاة
 والسلام : « كيف طلقها ؟ » قال : « طلقها ثلاثا في مجلس واحد » .
 قال : « انما تلك طلقة فارتجمها » (٢) .

يرى القاري من هذه العبارات التي بسطناها ليحصل لنفسه
 منها رأيا أن علماء مذهب عظيم كمنهـب ابن حنبل لم يقولوا على
 قضاء عمر رضي الله عنه ، بل تمسكوا بنصوص القرآن وسنة النبي ،
 ويمكن للأمة اذا أرادت الاصلاح أن تأخذ بقولهم ، لأن عمر رضي الله
 عنه قد بين لنا سبب قضائه بقوله : « ان الناس قد استعجلوا في
 أمر كان لهم فيه أناة ، فلو أمضيـناه عليهم » ، فكأنه اجتهد في جملة
 عقوبة لردعهم عنه . وكلنا نعلم أنه لم ينشأ من اجتـهاد عمر
 الا استهتار العامة بلفظ الطلاق الثلاث وتهافتهم عليه في محاوراتهم
 وإيـانهم .

بل لم لا يأخذ مريد الاصلاح بمذهب الامامية الذي نقله ابن
 عابدين ، وهو مذهب الأئمة من آل البيت في قولهم كما مر : « ان

(١) صفحة ١٩٠ ، جزء ثان .

(٢) صفحة ١٩١ ، جزء ثان .

الطلاق لا يقع بالطلاق الثلاث ولا في الحيض لأنه بدعة محرمة ، .

وان سمح لي القارئ أن أبدى هنا كل ما أظنه صوابا فاني أقول لا يمكنني أن أفهم أن الطلاق يقع بكلمة لمجرد التلفظ بها . كانت صريحة . نعم ، ان الأعمال الشرعية لا تستغنى عن الالفاظ ، اذ لو حللنا أى عقد لوجدناه مركبا من ظهور ارادة أو مطابقة ارادتين حصل الاستدلال عليها أو عليهما من الفاظ صدرت شفاهيا أو بالكتابة ، ولذلك فليس الغرض الاستغناء عن الالفاظ . وانما مرادنا ان اللفظ لا يجب الالتفات اليه في الأعمال الشرعية الا من جهة كونه دليلا على النية .

فينتج من ذلك أنه يجب أن يفهم أن الطلاق انما هو عمل يقصد به رفع قيد الزواج ، وهذا يفرض حتما وجود نية حقيقية عند الزوج وارادة واضحة في أنه انما يريد الانفصال من زوجته ، لا أن يفهم كما فهمه الفقهاء وصرحوا به في كتبهم أن الطلاق هو التلفظ بحروف [ط ل ا ق] .

والذى يطلع على كتبهم يندهش عندما يرى اشتغالهم بتأويل الالفاظ والتفنن في فهم معانيها في ذاتها بقطع النظر عن الأشخاص . وعندهم متى ذكر اللفظ تم الأثر الشرعى ، ولهذا قصرُوا أبحاثهم جميعها على الكلمات والحروف ، وامتلات الكتب بالاشتغال بفهم طلقتك وأنت طالق وأنت مطلقة وعلى الطلاق وطلقت رجلك أو رأسك أو عرقك وما أشبه ذلك ، وصارت المسألة مسألة بحث في اللفظ والتركيب ربما كان مفيدا للغة والنحو ولكنه لا يفيد مطلقا علم الفقه بشىء .

على أننا نظن أن علم الشرائع يقبل أبحاثا أخرى غير تأويل الالفاظ ، والطلاق لم يخرج عن كونه عملا شرعيا يترتب عليه ضياع حقوق وإنشاء حقوق جديدة ، وهو في حد ذاته لا يقل عن الزواج

فى الأهمية حيث يتعلق به أعظم الحوادث المدنية كالنسب والميراث
الألفاظ وانتركيب ربما كان مفيدا للغة والنحو ولكنه لا يفيد مطلقا
علم الفقه من له المام ولو سطحي بالوظيفة السامية التى تؤديها
الشرائع فى العالم .

ولو ترك فقهاؤنا الاشتغال بالألفاظ ، وبحثوا فى مآخذ الأحكام
التي يقررونها ، وعرفوا تاريخها وأسبابها ، وقارنوا المذاهب بعضها
ببعض ، وانتقدوها ، وبالجمله لو اشتغلوا بعلم الفقه الحقيقى لتبين
لهم أن الطلاق لا يكون طلاقا الا اذا كان مصحوبا بنية الانفصال .

ويمكن الناظر أن يجد فى كتب الشريعة الاسلامية ما يفيد عدم
صححة الطلاق اذا فقت نية الانفصال ، فقد نقل عن شرح التلقين :
« ان الرجل لو طلق زوجته بكلمة أو كلمات فى حال الغضب أو النزاع
لا يقع طلاقه » . ورووا فى ذلك أحاديث مثل قول على بن أبى طالب :
« من فرق بين المرء وزوجته بطلاق الغضب أو اللجاج فرق الله بينه
وبين أحبائه يوم القيامة » . قاله الرسول عليه السلام .

نعم ، ان ناقل هذا القول اجتهد فى رده ، وبالح فى ابطاله ،
ولكن مريد الاصلاح له أن يبحث فى كتب الشرع كلها ، ويقف على
آراء الفقهاء مهما كانت ، خصوصا اذا كان قصده محو فساد عظيم
صار ضرره عاما .

نحن فى زمان ألف الرجال فيه الهنر بالفاظ الطلاق ، فجعلوا
عصم نسائهم كأنها لعب فى أيديهم يتصرفون فيها كيف يشاؤون ،
ولا يراعون للشرع حرمة ولا للعشرة حقا . فترى الرجل منهم يناقش
آخر فيقول له ان لم تفعل كذا فزوجتى طالق ، فيخالفه فيقال وقع
الطلاق ، وانفصمت العصمة بين الحالف وزوجته ، وهى لا تعلم
بشئ ما ، ولا تبغض زوجها ، ولا تود فراقه ، بل ربما كان الفراق
ضربة قاضية عليها . وكذلك الرجل ربما كان يحب زوجته ويألم

لفراقها ، فاذا افترق منها بتلك الكلمة التي صدرت منه لا يقصد الانفصال من زوجته وانما يقصد الزام شخص آخر بالعمل الذي كان يريد به كان الطلاق على غير نية منه .

رب رجل يناقش زوجته في بعض شؤون البيت فيرد على لسانه في وقت الغضب الحلف بالطلاق من باب التخويف والتهديد وعلى غير قصد منه لهزم العصاة ، فيقال أيضا وقع الطلاق ، ويعقبه ما سبق ذكره من البلاء الذي ينزل على الزوجين .

ورب فلاح يرتكب جريمة السرقة مثلا فيسأله العمدة أو مأمور المركز عما وقع منه فينكر ، فيستحلفه بالطلاق فيحلف أنه ما سرق والحال أنه سرق ، فيقال كذلك وقع الطلاق ، وهو لم يقصد يمينه الا تبرئة نفسه ، ولم يخطر بباله عند الحلف أنه مبالغ في لزومه كاره لشرتها .

فلم لا يجوز مع ظهور الفساد في الأخلاق والضعف في العقول وعدم المبالاة بالمقاصد أن يؤخذ بقول بعض الأئمة من أن الاستشهاد شرط في صحة الطلاق ، كما هو في صحة الزواج ، كما ذكره الطبرسي ، وكما تشير إليه الآية الواردة في سورة الطلاق حيث جاء في آخرها : « وأشهدوا ذوي عدل منكم » ؟

ليس هذا أمرا صريحا بالاستشهاد يشمل كل ما أتى قبله من طلاق ورجعة وامسك وفراق ؟ اليس قصد الشارع أن يكون للطلاق واقعة حال مشهورة لدى العوام ليسهل اثباته ؟ لم لا يقرر أن وجود الشهود وقت الطلاق ركن بدونه لا يكون الطلاق صحيحا فيتمنع بهنه الطريقة هذا النوع الكثير الوقوع من الطلاق الذي يقع الآن بكلمة خرجت على غير قصد ولا روية في وقت غضب ؟ نظن أن في الأخذ بهذا الحكم موافقة لآية من كتاب الله ورعاية لمصلحة الناس . وما يدرينا أن الله سبحانه وتعالى قد اطلع على ما تصل إليه الأمة

في زمان كزماننا هذا فانزل تلك الآية الكريمة لتكون نظاما لنا نرجع اليها عند ميسر الحاجة كما هو شأننا اليوم .

بل ان ارادت الحكومة ان تفعل خيرا للأمة فعليها ان تضع نظاما للطلاق على الوجه الآتي :

المادة الأولى

كل زوج يريد أن يطلق زوجته فعليه أن يحضر أمام القاضي الشرعي أو المأذون الذي يقيم في دائرة اختصاصه ويخبره بالشقاق الذي بينه وبين زوجته .

المادة الثانية

يجب على القاضي أو المأذون أن يرشد الزوج الى ما ورد في الكتاب والسنة مما يدل على أن الطلاق ممقوت عند الله وينصحه ويبين له تبعه الأمر الذي سيقدم عليه ويأمره أن يتروى مدة أسبوع .

المادة الثالثة

إذا أصر الزوج بعد مضي الأسبوع على نية الطلاق فعلى القاضي أو المأذون أن يبعث حكما من أهل الزوج وحكما من أهل الزوجة أو عدلين من الأجانب ان لم يكن لهما أقارب ليصلحا بينهما .

المادة الرابعة

إذا لم ينجح الحكماء في الإصلاح بين الزوجين فعليهما أن يقدما تقريرا للقاضي أو المأذون ، وعند ذلك يأذن القاضي أو المأذون للزوج في الطلاق .

لا يصح الطلاق إلا إذا وقع أمام القاضي أو المأذون وبحضور شاهدين ولا يقبل اثباته إلا بوثيقة رسمية .

والذى يتأمل فى الآيات التى سبق ذكرها فى الاستشهاد والتحكيم يرى أن نظاما مثل هذا ينطبق على مقاصد الشريعة ولا يخالفها فى شيء . وليس لمعترض أن يحتج بأن نظاما مثل هذا يسلب الزوج حقه فى الطلاق ، لأن حق الزوج فى الطلاق باق على ما هو عليه الآن . فهو الذى يملك عصمة الزواج وأسباب الفراق لا تزال متروكة لتقديره . وغاية ما فى الأمر أننا اشتراطنا أن يسبق الطلاق تحكيم الحكيم ونصيحة القاضى . وليس فى هذا تعد على حق من حقوق الزوج ، وإنما هو وسيلة للتروى والتبصر اتخذت لمصلحة المرأة وأولادها ، بل لمصلحة الزوج نفسه ، حيث نرى كثيرا من الأزواج يأسفون على وقوع الطلاق منهم على غير روية ، ثم يضطرون الى استعمال الحيل الدنيئة كالمستحل مثلا لمداواة طيشهم .

الا يرى أفاضل الفقهاء أن مثل هذه الطريقة البسيطة تترتب عليها منفعة عظيمة هى تقليل عدد الطلاق ، فضلا عما فيها من اتباع أوامر الله وتنفيذ حكم مهم مثل حكم التحكيم المنصوص عنه فى الآية التى ذكرناها واتباع أمر شرعى بقى معطلا إلى الآن حيث لم نسمع باجرائه يوما خصوصا فى أمة كامتنا بلغ أمرها من فساد الأخلاق والطيش الى حد أن الرجل يحلف بالطلاق وهو يأكل ويشرب ويمشى ويضحك ويتشاجر ويسكر وامراته جالسة فى بيتها لا تعلم شيئا مما جرى فى الخارج بينه وبين غيره .

دلت احصائية الطلاق عن مدينة القاهرة فى مدة الثمانى عشرة سنة الأخيرة على أن كل أربع زوجات يطلق منهن ثلاث وتبقى واحدة فقط . واليك بيانها بالتفصيل :

سنة	زواج	طلاق
١٢٩٨ هـ	١٢٦٠١	٦٩٠٢
١٢٩٩	٤٩٠٠	٤١٥٢
١٣٠٠	٤٣٥٠	٤ ٦٤٨
١٣٠١	٣٤٠٠	٤٠٠٠
١٣٠٢	٤٧٠٠	٥٢٥٠
١٣٠٣	٤٧٤٩	٥٥٠٠
١٣٠٤	٤٨٥٠	٤٦٩٨
١٣٠٥	٤٧٤٩	٥٣٥٠
١٣٠٦	٥٠٠٠	٥٨٥٠
١٣٠٧	٥٧٠٠	٤٧٠٠
١٣٠٨	٦٧٥٠	٥٩٠٠
١٣٠٩	٦٩٠٠	٥٥٤٨
١٣١٠	٧١٠٠	٥٨٤٧
١٣١١	٧٤٠٠	٥٢٨١
١٣١٢	٨٢٥٠	٤٦٥٠
١٣١٣	١٤٢٥٠	٤٦٠٠
١٣١٤	٨١٥٠	٤٣٠٠
١٣١٥	٨١٤٨	٤٠٠٠

وأذكر هنا احصائية أخرى عمومية عن عدد الطلاق والزواج (١) ، الذى حصل فى عموم القطر المصرى فى سنة ١٨٩٨ :

سنة	زواج	طلاق
١٨٩٨	١٢٠٠٠٠	٣٣٠٠٠

ومنها يظهر أن كل أربع زوجات تطلق منهن واحدة وتبقى ثلاث وهذه النتيجة ان كانت أحسن من الأولى بسبب أنها تشمل سكان الأرياف الذين لا يطلقون مثل أهل مصر ، فان كليهما من أقوى الحجج على اضمحلال العائلات عندنا وسهولة تهديم بنائها .

ومن الغنى عن البيان أن المرأة اذا ترقّت وشعرت بجميع ما لها من الحقوق فانها لا تقبل أن تعامل بطرق القسوة والاهانة التى تعامل بها وهى جاهلة ، وعند ذلك يحس الرجال أنفسهم بأنه ليس من اللائق بهم أن يستعملوا حق الطلاق الذى وكله الله بأمانتهم الا عند الضرورة التى شرع الطلاق لأجلها ، فترية النساء مما يساعد على اصلاح أخلاقنا وتأديب ألسنتنا . فان الرجل يحتقر المرأة الجاهلة ، ولكنه يشعر برغم ارادته باحترام المرأة اذا وجد منها عقلا ومعرفة وعلاوا فى الأخلاق ، فيقف لسانه عن ذكر ما لا يليق بها ، ويؤدى لها حقوقها .

ولكى لا يجعل بنا أن ننتظر ذلك الزمان الذى يبلغ فيه النساء بالتربية والتهذيب ما يملأ قلوب الرجال من توقيرهن واحترامهن ، بل يجب على كل من يهتم بشان أمته أن ينظر فى الطرق التى تخفف من مضار الطلاق الى أن يأذن الله بتلك الغاية التى هى منتهى كل غاية . وقد بينا أن مجموع المذاهب الاسلامية قد حوى من

(١) هذه الاحصائية استخرجها من دفاتر الحاكم الشرعية السيد عمر اسماعيل الموطى بنظارة الخنائية (وزارة العدل الآن) والمنتدب بالمعكة الشرعية الكبرى .

الأحكام ما يساعد على وضع حدود تقف عندها العامة ، وتكون مراعاتها من الوسائل الى تقلصنا فى طريق الصلاح ، وأقل ما يكون من أثرها ألا تجد المفسد سبيلا من الشرع الى ظهورها ، فبذلك يكمل نظام العائلة ، وتعيش المرأة فى طمأنينة وراحة بال ، ولا تكون فى كل آن مهددة بفقد مكانتها من العائلة بسبب وبلا سبب .

ولكن لنا أن نلاحظ أنه مهما ضيقنا حدود الطلاق لا يمكن أن تنال المرأة ما تستحق من الاعتبار والكرامة الا اذا منحت حق الطلاق : ومن حسن الحظ أن شريعتنا النفيسة لا تعوقنا فى شيء مما نراه لازما لتقدم المرأة . والوصول الى منح المرأة حق الطلاق يكون بإحدى طريقتين :

الطريقة الأولى : أن يجرى العمل بمذهب غير مذهب الحنفية الذى حرم المرأة فى كل حال حق الطلاق ، حيث قال الفقهاء من أهله : « ان الطلاق منع عن النساء لاختصاصهن بنقصان العمل ونقصان الدين وغلبة الهوى » . مع أن هذه الأسباب باطلة ، لأن ذلك ان كان حال المرأة فى الماضى لا يمكن أن يكون حالها فى المستقبل ، ولأن كثيرا من الرجال أحط من النساء فى نقصان الدين والعقل وغلبة الهوى . واستدل على ذلك بملاحظة وردت على عند اطلاق على اخصائية الطلاق فى فرنسا ، فقد رأيت أنه فى سنة ١٨٩٥ حكمت المحاكم الفرنسية بالطلاق فى ٩٧٨٥ قضية ، منها سبعة آلاف تقريبا حكم فيها بالحق للنساء حيث ثبت أمام المحاكم أن العيب كان من الرجال .

ولا يصح فى الحق أن شريعة سمحاء عادلة كشريعتنا تسلب المرأة جميع الوسائل التى تبيح لها التخلص من زوج لا تستطيع المعيشة معه ، كان كان شريرا أو من أرباب الجرائم أو فاسقا أو غير ذلك مما لا يمكن معه لامرأة سليمة النوق والأخلاق أن ترضى بعشرته .

وقد وفى منهج الامام مالك للمرأة بحقها فى ذلك ، وقرر ان لها ان ترفع امرها الى القاضى فى كل حالة يصل لها من الرجل ضرر .

جاء فى كتاب « البهجة فى شرح التحفة » لابى الحسن التسولى ما يأتى : « ان الزوجة التى فى العصمة اذا اثبتت ضرر زوجها بها بشئ من الوجوه المتقدمة ، والحال انها لم يكن لها بالضرر شرط فى عقد النكاح من أنه ان اضر بها فأمرها بيدها فقبل لها أن تطلق نفسها بعد ثبوت الضرر عند الحاكم من غير أن تستأذنه فى ايقاع الطلاق المذكور ، أى لا يتوقف تطليقها نفسها على اذنه لها فيه . وان كان ثبوت الضرر لا يكون الا عنده ، كما أن الطلاق المشروط فى عقد النكاح أى المعلق على وجود ضررها لها أن توقعه أيضا بعد ثبوته بغير اذنه وظاهره اتفاقا ، وقيل حيث لم يكن لها شرط به لها أن أن توقع الطلاق أيضا لكن بعد رفعها اياه للحاكم وبعد أن يزجره القاضى بما يقتضيه اجتهاده من ضرب أو سجن أو توبيخ ونحو ذلك ولم يرجع عن اضرارها . ولا تطلق نفسها قبل الرفع والزجر . ومنهم من قوله ان الطلاق بيد الحاكم ، فهو الذى يتولى ايقاعه ان طلبته الزوجة وامتنع منه الزوج ، وان شاء الحاكم أمرها أن توقعه . فعلى هذا القول لابد أن يوقعه الحاكم أو يأمرها به فتوقعه . واذا أمرها به فهى نائبة عنه فى الحقيقة كما أنه هو نائب عن الزوج شرعا حيث امتنع عنه . وروى أبو زيد عن ابن القاسم أنها توقع الطلاق دون أمر الامام . قال بعض الموثقين : والاول أصوب . »

الطريقة الثانية : أن يستمر العمل على منهج أبى حنيفة ولكن تشترط كل امرأة تتزوج أن يكون لها الحق فى أن تطلق نفسها متى شامت أو تحت شرط من الشروط ، وهو شرط مقبول فى جميع المناهج .

وهذه الطريقة أفضل من الأولى من بعض الوجوه . فان من المضار الحقيقية التي تتفق كل النساء في التحفظ منها وبذل المستطاع في اتقانها ما لا يكون سببا يسمح للقاضي أن يحكم بالطلاق في مذنب مالك ، وذلك كنزوح الرجل بامرأة أخرى وزوجته الأولى في عصمته ، فان الزوجة الأولى لو رفعت شكواها الى القاضي وطلبت منه أن يطلقها لم يجز للقاضي أن يجيب طلبها ، فلو اشترطت أن تطلق نفسها متى شئت أو عندما يتزوج زوجها عليها كان الامر بيدها . ولكن العمل على الطريقة الأولى أحكم وأحزم ، فان وضع الطلاق تحت سلطة القاضي أدعى الى تضيق دائرته وادنى الى المحافظة على نظام الزواج .

ولما كان تخويل الطلاق للنساء مما تقتضيه العدالة والانسانية لشدة الظلم الواقع عليهن من فئة غير قليلة من الرجال لم تتحل أرواحهم بالوجدانات الانسانية السليمة ، كان لي الأمل الشديد في أن يحرك صوتي الضعيف همه كل رجل محب للحق من أبناء وطني ، خصوصا من أولياء الأمور ، الى اغانة هؤلاء الضعيفات المقهورات الصابرات .

خاتمة

تبين للقارىء مما سبق أن ما نريد ادخاله من الاصلاح فى حالة النساء ينقسم الى قسمين : الأول يختص بالعادات وطرق المعاملة والتربية ، والثانى يتعلق بدعوة أهل النظر فى الشريعة الاسلامية والعارفين بأحكامها الى مراعاة حاجات الأمة الاسلامية وضرورتها فيما يختص بالنساء والا يقفوا عند تطبيق الأحكام عند قول امام واحد انما كان اجتهاده موافقا لمصلحة عصره ، وأن يدققوا البحث فيما تغير من الأحوال والشئون ، فان وجدوا فى قول امام ما تعسر معه المحافظة على كرامة الشرع أقاموا مقامه قول امام آخر يكون فى مذهبه ما يسد الحاجة بدون خروج عن أصول الشريعة العامة .

والعمل على تحقيق هذين النوعين من الاصلاح هو كغيره من سائر الأعمال النافعة انما يتم بالعلم والعزيمة :

المسلم

هو وسيلة الأمة لمعرفة حاجاتها ، وبه تتنبه أفعال أفرادها الى ما هم فيه وما عرجوا عليه من الأخلاق والعوائد والكبالات والتناقض بحيث يكونون على شعور دائم بأحوالهم ، وتكون تلك الأمور دائما موضوع بحثهم .

ان من الغفلة بل من أسباب الشقاء أن تكون شئوننا فى حياتنا قائمة بعوائد لا نفهم أسبابها ، ولا نفكر آثارها فى أحوالنا .

بل نتمسك بها لأنها جاءت إلينا ممن سلفنا ، وورثناها عن تقديسنا ،
وذلك كل ما فيها من الحسن عندنا ، مع أن هذا وحده لا يكفي لأن
يكون سببا في الأخذ بها ، ولا في الثبات عليها ، بل يجب أن نفهم
أن لنا مصالح ، ولنا سبقنا مصالح ، ولنا شئون ، ولهم شئون ،
ولنا حاجات لم تكن لهم ، وكانت لهم حاجات ليست لنا اليوم ،
وذلك من البدعي الذي لا يختلف فيه اثنان .

فعلينا أن نأخذ من العوائد ، وأن نكسب من الأخلاق ، ما يلتئم
مع مصالحنا ، فنكون مالكين لمصادر أعمالنا كما يطلب منا العقل
والشرع ، لا أن نكون عبيدا لعاداتنا التي وجدنا عليها آباءنا ،
فيكون مثلنا مثل رجل وجد لباسه ضيقا فرأى أن يجوع ليهزل
ويضعف وينحل حتى يصغر جسمه فيسهل لباسه ، لا أن يصلح
لباسه بتوسعته حتى يتفق مع جسمه .

أنا لا نجد عقبة في طريقنا إلى السعادة أصعب اجتيازاً من
شدة تمسكنا بعادات من سلفنا من غير أن نميز بين تلك العادات
مصلحتها ومآلاتها . نعم ، إن الماضي لا يصح أن يطرح جملة ، لكن
يجب أن ينظر فيه بالتبصر والروية لمعرفة ما أظهر من منافع
ومضار .

لا أرى أعجب من حالنا ! هل نعيش للماضي أو للمستقبل ؟
هل نريد أن نتقدم أو نريد أن نتأخر ؟ نرى العالم في قلب مستمر
وشئون في تغير دائم ونحن ننظر إلى ما يقع فيه من تبدل الأحوال
بعضها خاصة وفكرة حائرة ونفس ذاهلة لا ندري ماذا نصنع ، ثم
تنهزم إلى الماضي نلتمس فيه مخلصاً ونطلب منه عوناً فنرتد دائماً
خائبين .

رأينا في هذا القرن حادثة عجيبة أظنها وحيدة في التاريخ .
رأينا أمة بتعلمها خلعت عوائلها وأبطلت رسومها وتخلت عن

أنظمتها وقوانينها وطرحتها وراء ظهرها ، فقطعت كل وصلة بينها وبين ماضيها الا ما كان متعلقا بجامعة شعبها ، ثم هبت فبنت بناء جديدا مكان البناء القديم ، فلم يمض عليها نصف قرن حتى قد شيدت ميكلا جميلا على آخر طراز افاده التمدن ، فهبت من نومها ، ونشطت من عقالها ، وشعرت بأن الحياة تلعب في بدننها ، وتجري في عروقها دما حارا قويا فتيا : تلك هي الأمة اليابانية صارت تعد اليوم في صف الأمم المتقدمة بعد أن قهرت في بضعة أيام دولة الصين الجسيمة التي لم يقتلها الا اعجابها بماضيها . اليس في ذلك عبرة لكل متبصر ؟

لو كانت عوائدنا فيما يتعلق بالنساء لها أساس في شريعتنا لكان في ميلنا الى المحافظة عليها ما يشفع لنا . أما وقد برهنا على أن كل ما عرضناه من أوجه الإصلاح يتفق تمام الاتفاق مع أحكام الشريعة ومقاصدها ، فلم يبق لنا عذر في التمسك بها سوى أنها قد تقدست بمرور الزمان الطويل وأنها غفلنا عن مصالحنا وتدين شئوننا .

إذا توهم بعض القراء أن ما ورد في كتب الفقهاء من استحسان علم كشف وجه المرأة وعدم مخالطتها بالرجال - دفعا للفتنة - هو من الأحكام الدينية التي لا يجوز تغييرها ، قلنا ان هذا الاعتراض مردود بأن الأحكام الشرعية جاءت في الغالب مطلقة وجارية على ما تقتضيه العادات الحسنة ومكارم الأخلاق ، ووكلت فهم الاجزئيات الى انظار المكلفين ، ووضعتها تحت تصرف اجتهادهم ، وعلى هذا جرى العمل بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه وأتباعه .

ولما اتسعت خطة الاسلام ، وكثر اختلاط المسلمين بغيرهم من الأمم ، وعرضت لهم حاجات وضرورات اقتضت أحكاما ومشروعات جديدة ، قام المجتهلون بينهم واستنيطوا لهم من أصول الشريعة

العامة ما يناسب الوقائع الخاصة ، ففصلوا ما أجمله القرآن والسنة من الأحكام ، وفرعوا منها ما يناسب الأحوال والأمصار والأعصار ، فهم لم يضعوا بذلك شرعا ، ولم يضيفوا على الدين شيئا ، وإنما كان اجتهادهم مقصورا على النظر فى الجزئيات وردها الى كلياتها المقررة فى الكتاب والسنة .

الا ترى أن القرآن لم يبين أهم الفروض مثل أحكام الصلاة ومواقيتها وركوعها وسجودها ، ولا مقادير الزكاة وأوقاتها ، ولا مناسك الحج ، وأن السنة هى التى رسمت تلك الأحكام مجملة ، ثم جاء المجتهدون ففصلوا أحكامها وقرروا فروعها ؟

على هذا النمط تألفت شريعتنا : من فروع كلها راجعة الى أصل واحد .

فالشريعة الإسلامية انما هى كليات وحدود عامة ، ولو كانت تعرضت الى تقرير جزئيات الأحكام لما حق لها أن تكون شرعا عاما يمكن أن يجد فيه كل زمان وكل أمة ما يوافق مصالحهما .

فهذه القواعد الكلية التى تحدد أعمالنا بحدود يجب الانتهاء إليها على حسب ما ورد فى الكتاب والسنة الصحيحة هى التى لا تقبل التغير والتبديل ، أما الأحكام المبنية على ما يجرى من العوائد والمعاملات فهى قابلة للتغير على حسب الأحوال والأزمان ، وكل ما تطلبه الشريعة فيها هى ألا يخل هذا التغير بأصل من أصولها العامة . فكشف الرأس مثلا قبيح فى البلاد الشرقية ، لأنه كان معتبرا فى العادة مخلا بالمروءة ، ولهذا السبب اعتبر عند أهل الشرق قادحا فى العدالة ، ولكنه غير قبيح فى البلاد الغربية فلا يكون عندهم قادحا . فالحكم الشرعى يجب أن يختلف باختلاف ذلك . وجواز اثبات التصرفات الشرعية بالشهادة لم يكن الفرض منه معنى مخصوصا فى أشخاص الشهود وانما الفرض منه اثبات هذه التصرفات بالطريقة التى وقع الاصطلاح عليها ولم يكن غيرها

مالوفا ، فاذا تغيرت الأحوال وتبدل الاصطلاح واعتاد الناس التعامل فيما بينهم بالكتابة تغير كذلك الحكم الشرعى وتحولت طريقة الاثبات من الشهادة الى الكتابة . واذا قيل باستحباب ستر المرأة وجهها عن الرجال لخوف الفتنة ، وعلم اقتضاء الحال لكشفه فى زمان كان هناك مجل لخوف الفتنة ، ولا تقضى ضرورات الحياة على المرأة بكشف وجهها ، فلا مانع من أن يتغير هذا الاستحسان الى ضده فى زمان آخر ، ذلك لأن اختلاف الأحكام باختلاف الموائد والمصالح ليس فى الحقيقة اختلافا فى الشريعة ، وانما هو رد لأحكام الجزئيات الى أصولها الكلية ورجوع بها الى مقاصدها الشرعية .

تبين من ذلك أن لنا فى مآكلنا وملبسنا ومشربنا وجميع شئون حياتنا العمومية والخصوصية الحق فى أن نتخير ما يليق بنا ويتفق مع مصالحنا بشرط ألا نخرج عن تلك الحدود العامة التى أشرنا اليها .

أما التزامنا بما وجدنا عليه آباءنا وعدم الخروج عن الدائرة التى رسموها لأنفسهم فهو القضاء على الأمة الاسلامية بجمود القرائع وتقييد الأرجل وغل الأيدي عن كل عمل تحفظ به كونها وتنافع به عن وجودها وتتقاسم به فى سبيل سعادتها ، بل قد يكون قضاء عليها بالمحو والاضمحلال .

العزيمية

العزيمية هى حث الإرادة الى كل خير أرشدنا اليه العلم والعرفان ، والفرار بها من كل شر دلنا عليه البحث والتنقيب . والعزيمية هى أشرف قوى الانسان وأجلها وأعظمها أثرا فى أعماله . فالتعليم والتهديب وسعة العقل والأميال الحسنة والفرائض الطيبة ، كل ذلك لا يفيد فائدة تذكر عند شخص مجرد عن العزيمية ، ولهذا كان ضعف الإرادة أكبر عيب فى الانسان .

نرى كثيرا من أهل بلادنا يستحسنون فكرة أو عملا ، ولكنهم لا يجدون من أنفسهم حمة كافية لخسمة تلك الفكرة أو ذلك العمل ، ويكفى أنهم يعلمون أن بعض الناس لا تتفق معهم في رأيهم لتلاشي ارادتهم وسقوطها ، أما اذا علموا أنه ربما يسهم ضرر ما من ناحية ذلك العمل فهم يفرون منه فرارا .

ان كان لنا أمل في نجاح ما نعلمه صالحا لنا وانما يكون في الرجل الذي يحب أن يعزف ، ويبحث ليعرف ، ويعرف بالفعل ما تحتاج اليه بلاده ، وله عزيمة تنفعه الى العمل في جلب ما ينفعها ودفع ما يضرها بالوسائل التي تؤدي الى المطلوب بطبيعتها طال الزمان أو قصر .

فعلى مثل هذا الرجل الكامل نعرض طريقة للعمل فيما نحن بصدد بعد العلم بأن الخطوة الأولى في كل شيء هي من أصعب الأمور ، لأن الانتقاد جميعه ينصب على من يتبدى في أى أمر خطير ، ومن النادر أن يوجد شخص يحس من نفسه قوة كافية لمقاومة تيار الانتقاد العام .

فأحسن طريقة أراها لتنفيذ ما عرضناه في هذا الكتاب هي أن تؤسس جمعية يدخل فيها من الآباء من يريد تربية بناته على الطريقة التي شرحناها ، وأن يختار لتلك الجمعية رئيس من كبار المصريين (ولا اظن أن الطبقات العليا من أهل بلادنا تخلو من واحد منهم) ، وأن يكون عمل هذه الجمعية في أمرين : الأول التعاون على تربية البنات على هذه القاعدة الجديدة ، والثاني السعي لدى الحكومة في إصدار القوانين التي تضمن للمرأة حقوقها بشرط ألا تخرج في شيء من ذلك عن الحدود الشرعية ، ولكن بدون أن تنقيد بمنع من المناهض ، بل تأخذ عن كل منها ما هو موافق لحاجاتنا الحاضرة وضرورات عصرنا ، كما حصل مثل ذلك في وضع المجلة العثمانية ، وكما حصل عندنا مرارا في بعض المسائل المتعلقة

بالحاكم الشرعية . فاذا تشكلت هذه الجمعية يخف اللوم عن كل واحد من أعضائها ، فان قوة الانتقاد تأتي متوزعة على جملة من الأفراد فيسهل احتمالها ومقاومتها ، فلا يكون في شدة الانتقاد ما يبعث على فتور الهمة وضعف الإرادة عن العمل ، لأن في قوة الجماعة من الاقتدار على المناقعة ما ليس في قوة الفرد الواحد ، والاجتماع هو القوة الحقيقية التي بدونها لا ينجح شيء .

نرى حكومتنا تهتم بمسألة صغيرة كمسألة الشفعة فتعين لها لجنة شرعية لتبحث في المناهب ، وتجمع ما تراه منها مناسبا من الأحكام ، ونرى كثيرا من المصريين يخلون في كثير من الجمعيات مثل جمعية الرفق بالحيوان ومعارض الأزهار وغيرها ، ولا يضمنون بوقتهم ولا بمالهم في تعضيد مشروع من هذه المشروعات يعتقدون صلاحيته ، ونرى الجرائد تنشر بين طبقات الأمة من المعارف ما يساعد على تربيتها وتهذيبها ، وقد آن الوقت الذي يجب فيه على الحكومة وعقلاء الأمة وأرباب الأقلام أن يوجهوا التفاتهم الى حال المرأة المصرية ، فاني لا أرى مسألة تمس بحياة الأمة أكثر منها ، ولا أحق منها بأن تكون موضوعا لنظرهم ومجالا لأرائهم وأفكارهم .

الفهرس

الصفحة

٢	• • • • •	تصدير
١٩	• • • • •	مقدمة
٢١	• • • • •	تمهيد
٢١	• • • • •	تربية المرأة
٢٢	• • • • •	وظيفة المرأة في الهيئة الاجتماعية
٢٨	• • • • •	وظيفتها في العائلة
٦٠	• • • • •	حجاب النساء :
٦٢	• • • • •	الحجاب من الجهة الدينية
٧٢	• • • • •	الحجاب من الجهة الاجتماعية
٩٢	• • • • •	المرأة والأمة
١٠٩	• • • • •	العائلة : الزواج
١١٧	• • • • •	تعدد الزوجات
١٢٣	• • • • •	الطلاق
١٤٣	• • • • •	خاتمة : العلم
١٤٧	• • • • •	العزيمة
١٥١	• • • • •	الفهرست

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٤٠٢٩ / ١٩٩٣

ISBN — 977 — 01 — 3336 — 1

المواجهة

بلغت مؤامرات التطرف والارهاب فى مصر معدلات غير مسبوقة خلال السنة الأخيرة . ولم تعد هذه الظاهرة مجرد تهديد للدولة والنظام الحاكم ، بل أصبحت تهدد المجتمع المصرى كله ، سواء فى بنيته الداخلية أو فى اقتصاده أو أمنه الاجتماعى والسياسى ومكتسباته الثقافية والفكرية ، وكذلك انجازاته الاقتصادية والمادية . ولا تقل الحرب التى يشنها المتطرفون والارهابيون ضراوة عن أى حرب خاضتها مصر مع أعدائها الخارجيين فى هذا القرن . بل ربما كانت هذه الحرب أشد ضراوة ، لأن أحد أطرافها هم أبناء لنا ، أعمامهم التطرف : فاختاروا العنف سبيلا لفرض إرادتهم وزعزعة استقرار الوطن : واستهدف عنفهم أبناء لنا فى أجهزة الأمن ، أو أخوة لنا من المدنيين المسالمين العزل ، مسلمين وأقباطا .

ان ما تمر به مصر الآن هو مأساة إنسانية وثقافية وحضارية ، وكارثة إقتصادية وسياسية ولذلك أصبح من الضرورى أن ينتفض المصريون ، ومؤسسات مجتمعهم المدنى ، للوقوف فى وجه التطرف ومحاصرتهما واحتوائهما ، تمهيدا لاقتلاعهما تماما .

من أجل هذا تصدر الهيئة المصرية العامة للكتاب بيت المصريين هذه السلسلة للوقوف أمام هذه الظاهرة بالفكر المستنير الحق الشريفة .

Bibliotheca Alexandrina



0617195

